الردُّ على زعم المستشرقين
أنَّ القرآن غير مُنزَّل

تأليف

د/ كوكب عامر

أستاذ مساعد بكلية البنات جامعة عين شمس

obeikan.com

obeikan.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

هذا البحث يهتم في الدرجة الأولى بالرد على قضية أساسية وحيوية بالنسبة للإسلام، وهي إثبات أنه موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه، وليس هو واضعه ومؤلفه كما يدَّعي المستشرقون ذلك.

وليس هذا الافتراء من جانب المستشرقين هو الافتراء الوحيد على الإسلام ونبيه، وإنما هو عمدة مزاعمهم، فلو صح هذا الزعم لهدم الدين الإسلامي من أساسه، أما باقي المزاعم الأخرى مثل قولهم بأن القرآن لم يُدَوَّن في عصر الرسول، وأنه حُرِّف وعُدِّل وأُضيف إليه وحُذف منه، أو قولهم بأن القرآن به متناقضات، أو أنَّ الإسلام لا يدعو إلى النظر العقلي، وإنما هو دعوى إلى الجمود الفكري وعدم إعمال العقل، وغيرها من المزاعم تأتي في الدرجة الثانية من حيث أهميتها. أمَّا الزعم بأن القرآن من وضع البشر فهذا هو جوهر القضية؛ فلو صح هذا الزعم لا يضير الإسلام بعد ذلك أن كان دُوِّن في عهد الرسول أو لم يُدَوَّن، أو إن كان أُضيف إليه أو حُذف منه، فتلك أمور تأتي في الأهمية بعد ذلك.

والحقيقة أن هذا الموضوع شغل المفكرين المسلمين قديمًا وحديثًا، وتناوله كل باحث بطريقة أو بأخرى، وعلماء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها

هبوا جميعًا للرد على الهجمة الشرسة التي شَنَّها بعض المستشرقين على الإسلام ونبيه، وكان لكل مزاعمهم ضد الإسلام ما يثبت بطلانها، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا﴾، كما كشفوا أغراضهم.

وقد كان الاعتماد الأساسي في هذا البحث على كتاب الله الكريم، ثم على أقوال الرسول الكريم والصحابة رضوان الله عليهم، وكتب التراث وأقوال السلف من المفسرين، وأقوال علماء الإسلام قديمًا وحديثًا، وقد قسم هذا البحث إلى فصلين كبيرين -بعد المقدمة-:

الفصل الأول: يتناول زعم المستشرقين بأن القرآن من وضع محمد صلى الله عليه وسلم، أوردتُ فيه مزاعم المستشرقين، وأشرت فيه إلى المنصفين منهم ممن كانت أبحاثهم حول الإسلام تتسم بالموضوعية والحياد، ثم الرد على تلك المزاعم وتوضيح بطلانها. وتعرضت لحياة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين، وأوضحت كيف كان صامدًا واثقًا من نصر الله له، ولم يستسلم لمحاربة كفار مكة وكيد المعتدين، ولم يقنط من رحمة الله ونصره الذي وعده به، حتى كَمُل دينه وانتشرت دعوته، ثم أوضحتُ مَن هو محمد صلى الله عليه وسلم كما حَدَّثنا عنه القرآن الكريم.

وفي الفصل الثاني: كان رد القرآن على المستشرقين في هدم زعمهم بأنه غير منزل. فتناولت في هذا الفصل أخبار القرآن الكريم عن الغيبيات في الماضي والمستقبل، وكشفه أسرار الكون ووصفه للحقائق وصفًا دقيقًا صادقًا لم يصل الإنسان إلى معرفته إلا بعد أن كشف عنه العلم المعاصر، وبينت أن تلك

الحقائق الكونية والأسرار لم تكن معروفة للعلماء في مشارق الأرض ومغاربها في عصر محمدٍ، فالأَوْلى أن يكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يدري عنها شيئًا ولم يسمع بها. وأوضحت أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يأخذ تلك الحقائق من الكتب السماوية السابقة؛ لأنها لم ترد فيها، ناهيك عن حديث القرآن من الأحداث المستقبلة وتنبؤاته القريبة والبعيدة، والتي حدثت كما أخبر الله نبيه بها، فكانت خير دليل على صدق نبوة محمد. ثم تعرضتُ لما جاء في القرآن من مخاطبة الله لرسوله وإخباره له بما حدث من أحداث لا يدري عنها شيئًا، ولومه له وعتابه، وإجابته على أسئلة السائلين، وأوضحت أن هذا الأسلوب يدل دلالة واضحة على أن الله يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم أنهيت البحث بخاتمه أوضحت فيها أهم النتائج التي تخرج بها من هذا البحث، وقائمة بأهم المراجع العربية والإفرنجية، والله ولي التوفيق.

كوكب عامر

openkan.com

obeikan.com

الفصل الأول

بيان تهافت أقوال المستشرقين في إنكار الوحي

١ - تمهيد.

٢ - مزاعم المستشرقين حول نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

٣ - الرد على المستشرقين.

٤ - محمدٌ الصادق الأمين.

٥ - محمد الواثق من نصر الله.

٦ - محمد كما حدثنا عنه القرآن الكريم.

obeikan.com

obeikan.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الأول
بيان تهافت أقوال المستشرقين في إنكار الوحي

١ـ تمهيد:

علينا أولًا وقبل كل شيء أن نسلم بأن مهاجمه المستشرقين للإسلام ونبيه أمر طبيعي، وهو يتفق والأغراض التي قام الاستشراق من أجلها. فنحن لا ننتظر منهم أن يمتدحوا الإسلام ورسوله؛ فإنهم إن فعلوا ذلك صاروا مسلمين؛ ولا ريب أنهم قوم لهم معتقداتهم الخاصة التي يتطلب الحرص عليها مهاجمة ما يخالفها من عقائد.

وعلى ذلك فإنَّ آمالنا في عدالتهم في الحكم على الإسلام يجب ألا تتعدى أكثر من أن يكونوا موضوعيين فيما يقدمونه من دراسات عن الإسلام ونبيه، فلا يتعمدوا تشويه الحقائق التاريخية فيبرزوا ما يوافق أغراضهم ويخدمها ويخرجونه في صورة بعيدة كل البعد عن الحق والواقع، ويتجاهلون الأمور التي لا توافق مآربهم، وإن كان لها وضوح الشمس. وهم قد فعلوا ذلك في إنكارهم نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي محاولتهم تشويه صورته وهو الصادق الأمين الذي أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، عندما وصفوه بالكذب والخداع، وبأنه كان يعاني من حالات نفسية مرضية صار معها يتخيل أنه النبي الخاتم.

obeikan.com

والحقُّ أن مصنفات المستشرقين تعد خير شاهد على عدم التزامهم بمنهج البحث العلمي السليم القائم على الأمانة والدقة والموضوعية في عرض الحقائق التاريخية. وهي مليئة بالمغالطات والاتهامات الكاذبة والحقد الدفين؛ فقد عرض مثلًا أحد المستشرقين المعاصرين وهو «جاستون فييت» تاريخ الإسلام في كتابه «مجد الإسلام» -وهو صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتَّاب المعاصرين- لكل فترة من فترات هذا التاريخ. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الكتاب يَنْضَحُ بالحق والطعن في الإسلام وتاريخه؛ لأن «جاستون فييت» تعمد فقط اختيار النصوص التي تتفق مع الاتجاه الذي اتجهه سلفًا، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين[1]، وبالطبع قد أغفل الحديث عن أمجاد التاريخ الإسلامي، وقوة الإيمان التي تمتع بها النبي وصحابته والقادة المسلمون، وتجاهل سر إيمانهم القوي الذي رفعهم إلى التضحية بأرواحهم وأموالهم وأولادهم في سبيل نصرة دينهم. غير أنهم لو فعلوا ذلك لهدموا الغرض الحقيقي من استشراقهم.

وهذا لا ينفي أن من المستشرقين من كان لهم مواقف موضوعية من الإسلامح فكانوا أكثر إنصافًا في دراستهم حوله، ولا ننسى أن بعضهم قد أسلم بالفعل عندما درس القرآن والإسلام دراسة موضوعية دون تعصبٍ مسبق.

---

(١) انظر: د/محمد حمدي زقزوق «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» ص٧٨، وانظر أيضًا: د/حسين مؤنس في نقده لكتاب «فييت» «مجد الإسلام» ملحق بكتاب د/البهي «الفكر الإسلامي الحديث» من ص: ٥٦٥: ٥٧٧.

وقد ادعى المستشرقون أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، وليس مُنزَّل من عند الله. وهذا الادعاء قد سبقهم إليه الكفار والذين أشركوا منذ عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فهو زعم ليس بجديد، فهؤلاء زعموا أن القرآن ﴿إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾. كما زعموا أنه ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا﴾.

كما ادعوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿يعلمه بشر﴾، كذلك قالوا: إن القرآن قول ساحر أو كاهن(١).

ولا ريب أن تكذيب الأنبياء والرسل أمر قد وقع لهم جميعًا من أقرب الناس إليهم ومن الغرباء على السواء. وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾.

والزعم بأن القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم لا يعتمد على دليل أو برهان يدعمه؛ وإنما هو مجرد ظن وعناد وجهل وتجاهل للحق؛ قال تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظنًّا إن الظن لا يغني عن الحق شيئًا إن الله عليم بما تفعلون، وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾.

وقد حذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام حذو مشركي قريش، وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس وحيًا من عند الله، وإنما هو من

(١) المرجع السابق: ص: ٨٢، ٨٣، وانظر أيضًا: كتاب د/البهي السابق، ص٥٦٩.

عند محمد صلى الله عليه وسلم(١).

رغم ما جاء في القرآن من آيات بينات لا يجحدها إلا الفاسقون الذين يجادلون في الحق بغير علم ولا هُدى ولا كتاب مبين؛ وذلك إما لأنهم أسرفوا على أنفسهم بانغماسهم في الأمور المادية الحسية وأنكروا الغيب والروحانيات ولم يؤمنوا باليوم الآخر؛ قال تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾.

وإمَّا لعنادهم وحبهم للجدل وطول باعهم فيه؛ قال تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلًا﴾.

وهؤلاء المجادلون المنكرون لو قرأوا القرآن بتدبر وتفكرٍ دون تعصب مسبق لجاء حكمهم موضوعيًّا، ولعرفوا أنه الحق من عند الله، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾.

أو لأن لهؤلاء المستشرقين مآرب أخرى فهم ﴿يريدون ليطفوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾، ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

---

(١) انظر: د/محمود حمدي زقزوق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» ص٨٢، وانظر أيضًا: د/محمد غلاب: «نظرات استشراقية في الإسلام»، وانظر أيضًا: محمد الغزالي: «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، وانظر أيضًا: أبو الحسن الأشعري: «الإبانة عن أصول الديانة» تحقيق وتعليق د/فوقية حسين.

obeikan.com

والحقيقة أن كل من يتعرض من أهل الباطل للإسلام ولنبيه محاولًا الكيد له أو النيل منه بالحجة أو باللسان[١] يجد من يقرعه الحجة بالحجة والدليل بالدليل، فكل مزاعمهم لها ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا﴾.

ولعلماء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها جهود عظيمة في هذا الميدان على مر التاريخ الإسلامي، ناقشوا فيها مسألة أن القرآن من مصدر بشري، وأظهروا زيف هذا الادعاء وبطلانه من أساسه؛ يقول الدكتور «محمد عبد الله دراز» في كتابه «مدخل إلى القرآن»: «جميع سبل البحث التي وقعت تحت أيدنا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح له (أي للنبي صلى الله عليه وسلم) فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة، ورغم الجهد الذهني الذي بذله المستشرقون لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته، فإنه يتعذر علينا اعتبارها تفسيرًا كافيًا لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون ... إلخ»[٢].

وسنقف الآن معًا على أمثلة من أقوال المستشرقين على سبيل المثال لا الحصر، سنرى منها بوضوح مدى تجنيهم على الإسلام ورسوله، ولنا معهم وقفة طويلة للرد عليهم بعد عرض نماذج لآرائهم في هذا الصدد.

---

(١) انظر مجموعة التوحيد لابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ص٤٨ وما بعدها.

(٢) د/ محمد عبد الله دراز: «مدخل إلى القرآن» ص١٦٥.

٢ـ مزاعم المستشرقين:

١- ذهب المستشرق الإنجليزي «دافيد صمويل مرجليوث» Margolous (١٨٥٨-١٩٤٠م) إلى أنَّ القرآن في أساسه ما هو إلا حكم وأقاصيص كانت تُروى على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عن أنبياء العهد القديم. ولقد عاشت هذه القصص وانتشرت في مكة وسمعها محمد وبدأ يرددها بشكل جديد، وصياغة جديدة على أنها قرآن يوحى إليه من الله[١].

وهو بذلك ينكر أن يكون القرآن منزلًا من عند الله؛ وإنما هو في رأيه من وضع محمد صلى الله عليه وسلم جمعه مما سمعه من حكم العهود القديمة وقصص الأنبياء التي كان يتداولها الناس في ذلك الوقت، وعرف كيف يخرجها إخراجًا جديدًا، ويسميها قرآنًا، ويدعي أنه يُوحى إليه من الله.

وقد قال الله تعالى في أصحاب هذا الادعاء: ﴿يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

هذا ولم يشكك «دفيد صمويل مرجليوث» في أن القرآن غير منزل من عند الله فقط، بل شكك أيضًا في طريقة جمعه؛ فهو يرى أن جمع القرآن قد اعتمد على السمع والذاكرة، وأنه لم يُدون في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرى أن القرآن قد تعرض للأخطاء والتكرار والإغفال.

كما حاول أن يثبت بشتى الطرق أن ما بين أيدي المسلمين من القرآن ليس

---

(١) انظر كتابه: D. S .Margolouth, Mohmmed and: the rise of Islam p.٧٣.
وانظر أيضًا: Early development of mohammedanism. pp. ٦, ٩.

هو ما كتبه محمد؛ بل إنه قد دخل عليه تحريف وتعديل وحذف منه وأُضيف إليه. كما كان له موقف واضح في التشكيك في الناسخ والمنسوخ في القرآن(١).

٢- وهناك مستشرق إنجليزي آخر هو «السير هاملتون جب» Gipp (١٨٩٥-١٩٧١م) الذي يشكك أيضًا في الوحي؛ فبعد اعترافه أن القرآن هو الوحي الأخير الذي يضمن الحل النهائي والكامل لجميع الأسئلة الخاصة بالعقيدة، وبأنه البرهان المنزه عن الخطأ، وأن السنة قد وجدت طبقًا له، نجد أنه يدس بين ثنايا كتاباته الكثير من العبارات والأفكار التي تشكك في الوحي. فهو يرى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد أعاد تأويل طقوس الديانات القديمة بعد أن استولى عليها(٢).

كما أنه يرى أن الحديث النبوي الشريف تأثر بالمسيحية من حيث إن هناك تشابه بين تدوين الحديث النبوي وبين تدوين الوثائق المسيحية(٣).

وللسير «هاملتون جب» آراء عديدة حول الإسلام، غير أننا قصرنا الاهتمام في شيء واحد وهو الادعاء بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد جمع القرآن من شتات الديانات السماوية السابقة، وأعاد صياغة ما جاء بتلك

---

(١) لمعرفة المزيد عن آراء مرجليوث في القرآن ارجع إلى: د/مجدى محمد عطا الله: «مدرسة الاستشراق الإنجليزي والتيارات الإسلامية الحديثة» (رسالة الماجستير تحت إشراف د/فوقية حسين محمود، ص٢٨٢ وما بعدها).

(٢) انظر H. A. R. Gipp: Mohammedanism. P.١٤

وانظر أيضًا: مجدي محمد عطا الله: «مدرسة الاستشراق الإنجليزي والتيارات الإسلامية المعاصرة» ص٣٤٠ وما بعدها.

(٣) H. A. R Gipp, La structure de la penee Religfeuse de l' jslam p. ١٩. ٢٠.

الديانات، فمحمد صلى الله عليه وسلم في رأيه شخص مبدع استجمع كل ما وصله من ثقافات ومعلومات. وكان إلى جانب ذلك يعاني من ثورة نفسية على ما حوله من أوضاع سيئة أدت به في نهاية المطاف إلى عمل ثورة اجتماعية على شكل أفكار وعقائد، وأن مهمة البحث التاريخي هي دراسة وتوضيح التفاعل القائم بين عبقرية محمد وبين البيئة(١).

فمن وجهة نظر «السير هاملتون جب» أن مهمة أي باحث ليست في البحث عن كيفية أحداث وتقبل الوحي وما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من خلال استفتاء الإنسان قلبه في هذا الأمر، وإنما هي فقط دراسة التفاعل بين عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم التي يتمتع بها وأهلته لإبداع هذا النسق الديني، ومكنته من القيام بثورة اجتماعية كان من آثارها أن حكم أصحابها الأرض من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب(٢).

٣- كما زعم المستشرق «دوزي» -المعروف بعدائه للإسلام- أن حال الاستغراق التي شوهدت عند محمد صلى الله عليه وسلم كانت ناشئة عن مرض يطلق عليه «الهستريا العضلية»، وأن نوبات هذا المرض تجلو الذهن جلاء «خارقًا للعادة». وقد استند في رأيه هذا كما يدعي إلى تشخيص الحكيم الألماني الشهير «شبرنجر Springer»، وهو يرى أيضًا أن القرآن كتاب ذو ذوق رديء للغاية

---

(١) H. A. R Gipp: Mohammedanism p. ٢٧.

(٢) H. A. R Gipp: Mohammedanism. p. ١٤. «مدرسة الاستشراق الإنجليزي والتيارات الإسلامية المعاصرة» ص٣٤٠ وما بعدها.

ولا جديد فيه إلا القليل، وفيه إطناب بالغ، وممل إلى حدٍّ بعيدٍ[١].

٤- كما ذهب المستشرق «دي بور» إلى أن القرآن فيه تعارض، وقد قبل الرعيل الأول من المؤمنين ما في القرآن من تعارض. وقد اتفق معه في الرأي «جريم» «وجولد تسيهر»، وقد عللوا هذا التعارض بأنه راجع إلى أحوال النبي النفسية التي كانت تتغير بتغير الأدوار المختلفة في تاريخ دعوته. وهذا يعني أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بالقرآن من عنده، وقد كتبه تَبعًا لأحواله النفسية، ولذلك تتغير فيه الآراء وتتعارض حسب أحواله وظروفه. ويقول الدكتور «حمودة غرابة»: «وهم يهدفون من هذا التعليل إلى إنكار أن يكون القرآن من عند الله؛ لأنه لو كان حقًّا لما تعارض. فإنه من المستحيل حقًّا أن يهدي الله البشر بكتاب يقرر حقائق متناقضة، كما أنه من المستحيل أن يناقض الله نفسه، ولكن لأن القرآن من صنع محمد، ومحمد بشر يخضع للظروف، وتتغير نفسه وآراؤه تبعًا لهذه الظروف، فمن الممكن أن تتعارض الأفكار الواردة عنه تبعًا لهذه التغيرات المختلفة. فحين كان محمد في بدء دعوته أراد أن ينفي القول بالجبر حتى لا يحتج به العرب في الانصراف عن دينه، فقرر الحرية الفردية، وحين كان بالمدينة أراد أن يرد الفضل كله في إيمانهم إلى الخالق، وبالتالي إلى نفسه؛ لأنه رسول الخالق وخليفته بينهم»[٢].

٥- وذهب المستشرق المجري «جولد تسهير» إلى أن الإسلام ليس من

(١) انظر: د/محمود زقزوق: «الإسلام في الفكر الغربي» ص٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر: د/حمودة غرابة: «الأشعري أبو الحسن» ص١٢، وقد جاء به ردود تفصيلية على جميع هذه الادعاءات.

صنع محمد وحده؛ وإنما هو أيضًا من صنع الأجيال التي جاءت بعده، وقد حاول في كتابه «العقيدة والشريعة» أن يبين أن أصل الإسلام أو أصل العقيدة والشريعة بدأ على يد محمد صلى الله عليه وسلم الذي تبشيره ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينه، عرفها أو استقاها باتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، والتي تأثر بها تأثيرًا عميقًا، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه، ثم نمت بعد ذلك (أي العقيدة والشريعة) على يد من جاء بعد ذلك من المفكرين المسلمين(١).

وهذا يعني بوضوح أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الذي وضع أساس العقيدة والشريعة الإسلامية من عنده؛ وليس عن طريق الوحي الإلهي، وساعده على ذلك ما جمعه من الديانات السماوية السابقة وغيرها. وهو يرى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أخذ أيضًا عن الرومان والفرس والهنود، وأن ما وضعه محمد كان النواة التي زادت عليها الأجيال التي جاءت بعده من علماء الإسلام الذين نموا التراث الذي تركه محمد صلى الله عليه وسلم وزادوا فيه كمًّا وكيفًا حتى بلغ الحدَّ الذي هو عليه الآن.

وقد كتب «جولد تسيهر» أربعمائة صفحة في مجلد ضخم يبرهن فيه على أنَّ العقيدة الإسلامية والشريعة هبطتا على محمد صلى الله عليه وسلم من أي ناحية إلا من السماء(٢).

---

(١) انظر: جولد تسيهر: «العقيدة والشريعة» ترجمه/ محمد يوسف موسى، ص١٢.

(٢) انظر: جولد تسيهر: «العقيدة والشريعة» ترجمه/يوسف موسى، وانظر أيضًا: محمد الغزالي: «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» ص٢٧.

وقد حاول «جولد تسيهر» أن يوفق بين قوة الصدق وحرارة الإخلاص ونبل الغاية في مسيرة محمد صلى الله عليه وسلم، وبين ما نسبه إليه من اختلاق الرسالة واستقاء أفكارها من الديانات والفلسفات الأخرى فقال: «لقد تأثر (أي الرسول صلى الله عليه وسلم) بهذه الأفكار تأثرًا وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوته التأثيرية الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًّا فأصبح -بإخلاص- على يقين بأنه أداة لهذا الوحي»(١).

أي أن محمد فيما يرى «جولد تسيهر» وصلت به قوة التخيل أو التهيؤات مداها لدرجة أنه صار يتصور أنه نبي يُوحى إليه، وأن ما يقوله من قرآن ليس مصدره إلا الوحي. وهو بذلك خدع نفسه، كما خدع غيره، بأنه رسول الله المختار.

وليست هذه كل مزاعم «جولد تسيهر» وإنما بعض منها، فله افتراءات عديدة على الإسلام ورسوله.

٦- كما زعم «جورج سيل» -في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن والتي صدرت عام ١٧٣٦م- أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الذي أَلَّف القرآن بمساعدة كبيرة من غيره، وأن ذلك شيء لا جدال فيه، وقال ما نصه:

---

(١) انظر: جولد تسيهر: «العقيدة والشريعة» ترجمه د/محمد يوسف موسى، وانظر أيضًا: محمد الغزالي: «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» ص٢٨، وهذا المرجع جاء به ردود حاسمة من المؤلف على مزاعم جولد تسيهر وتشكيكه في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

«إما أن محمدًا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له، فذاك أمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح مع ذلك أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك»(١). وقد تبعه في ذلك المستشرق «كاسميرسكي» في مقدمته ترجمة لمعاني القرآن الكريم عام ١٨٤١م(٢).

٧- كذلك زعم المستشرق «توماس إرينوس» (١٥٨٤-١٦٢٤م) -الذي كان أول أستاذ يشغل كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن عام ١٦١٣م- أن القرآن له قيمة من حيث اللغة؛ إلا أنه لم يكن يرى فيه من حيث المضمون شيئًا أكثر من تقليد مضحك للكتاب المقدس. وكان رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه متفقًا تمامًا مع ذلك النفور الذي كان سائدًا حينذاك في الغرب إزاء النبي العربي صلى الله عليه وسلم وتعاليمه(٣).

٨- ويرى «ريتشارد بل» -مؤلف كتاب مقدمة القرآن، والذي ترجم

---

(١) انظر: بلاشير: «القرآن نزوله وترجمته وتأثيره» ترجمه/رضا سعادة، ص١٩، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤م.

(٢) انظر: د/محمد عبد الله دراز: «مدخل إلى القرآن الكريم» ص١٣٠، دار القلم بالكويت ١٩٧٤م.

(٣) انظر: د/محمود حمدي زقزوق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري»، وراجع بحث الأستاذ طيباوي بعنوان «المستشرقون الناطقون بالإنجليزية» الذي نشر في مجلة العالم الإسلامي the Moslim World عدد يوليو ١٩٦٣م وترجمه الدكتور/فتحي عثمان إلى العربية، ونظرًا لأهمية هذا البحث ألحقه الدكتور/محمد البهي بكتابه «الفكر الإسلامي الحديث» من ص: ٥٨١ : ٦٦٢.

القرآن في جزئين في عامي ١٩٣٧، ١٩٣٩م، وهو أستاذ اللغة العربية بجامعة أدمبره- يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمد في كتابة القرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص. فبعض قصص العقاب كقصص «عاد وثمود» مستمدة من مصادر عربية؛ ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضل من وضعه السابق في مكة، حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب «موسى» صلى الله عليه وسلم على الأقل(١).

٩- كما يذهب المستشرق «لوت» إلى أنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم مدين بفكرة فواتح السور مثل: «حم، طسم، آلم...» إلخ لتأثير أجنبي، ويرجح أنه تأثير يهودي؛ ظنًّا منه أن السور التي بدأت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها النبي صلى الله عليه وسلم لتأثير اليهود، ولو دقق في الأمر لعلم أن سبعًا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين «مكية»، وأن اثنين فقط من هذه السور مدنية؛ وهي سورتا: «البقرة» و«آل عمران»(٢).

ولا يعني هذا أن المستشرقين جميعًا قد هاجموا الإسلام ونبيه؛ وإنما كان من بينهم المعجبين بالإسلام والذين لا يستطيعون أن يغمضوا عيونهم أمام نور الحقيقة الساطعة، فحاولوا أن يكونو موضوعيين في حكمهم على الإسلام؛ وإن

(١) انظر: د/ محمود زقزوق «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» ص٨٤.
(٢) انظر: د/ محمد غلاب: «نظرات استشراقية» ص: ٤١ إلى ٤٢.

كانوا في كثير من الأحيان لا يملكون حرية التعبير عن آرائهم تجاه الإسلام ونبيه بصراحة كاملة، ومن أمثال هؤلاء المستشرق الهولندي «هارد ريلاند» المتوفى سنة ١٧١٨م، وكان يعمل أستاذًا للغات الشرقية في جامعة «أوترشت» بهولندا، فقد أصدر كتاب باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان «الديانة المحمدية» وكان من جزئين؛ عرض في الجزء الأول العقيدة الإسلامية معتمدًا على مصادر باللغة العربية واللاتينية، وفي الجزء الثاني قام بتصحيح الآراء الغربية التي كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الإسلام. وقد أثار كتابه هذا اهتمامًا عظيمًا مما أدى إلى إثارة الشبهات حول المؤلف واتهامه بأنه يعمل دعاية للإسلام، وقد ترجم كتابه هذا إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية.

ويشير «ريلاند» في مقدمة كتابه إلى ما تتعرض له كل الأديان من جانب خصومها؛ إما بعدم فهمها أو يرميها بكل سوء بقصد خبيث، وهو يرى أن الإسلام تعرض من جانب خصومه للهجوم عن جهل أو لأغراض خبيثة، وقال: «إن المرء يصح له أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت»[1]، فرأى أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وحديث الناس، وإنما كما يدرس حقيقة في مساجد المسلمين ومدارسهم.

وفي رأيه أنه لم يتعرض دين من الأديان في هذا العالم في أي عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار

(١) د/محمود زقزوق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» ص٣٣.

والتشويه، والوصف بكل أوصاف السوء[١].

وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين، يصفها بأنها نظرية «محمدية». كما لو كان الأمر أنه لا يوجد في تعاليم محمد شيء صحيح، وأن كل ما فيها فاسد، وإذا أبدى المرء رغبة صادقة في التعرف على الإسلام لا تقدم له إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات، وينبغي على المرء بدلًا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع محمدًا نفسه وهو يتحدث بلغته، كما ينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يرى بعينه هو لا بعين الآخرين؛ وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن؛ فقد أعطى الله العقل لكل الناس. وقد كان في رأيي دائمًا أن ذلك الدين الذي انتشر انتشارًا بعيدًا في آسيا وإفريقيا -وفي أوربا أيضًا- ليس دينًا ماجنًا سخيفًا، كما يتخيل كثير من المسيحين. صحيح أن الدين الإسلامي دين سيئ جدًّا وضار بالمسيحية، ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغي للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله؟ إنَّ الأحرى أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أمانًا وأشد قوة[٢].

ورغم تصريحات «ريلاند» في تلك السطور الأخيرة والتي يحاول فيها إظهار عدم اقتناعه بالإسلام، ووصفه له بأنه دين سيئ وخطر على المسيحية، فإنه لم ينج من بطش الكنيسة التي لم تقتنع بهذه المبررات فحرمت تداول

(١) المرجع السابق: ص٣٤.

(٢) Gustav: Bfannmueller Handbuch. Der Islam llteratur Berlin.١٩٢٣ p. ٦٣ –٦٤.

الكتاب؛ وذلك لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور ويطلع عليها الناس[١].

ومن القلة المنصفة من المستشرقين الذين توخوا المنهج العلمي في دراساتهم حول الإسلام مما جعلهم أكثر قدرة من غيرهم على رؤية الحقائق والوقوف عليها المستشرق «رودي بارت» الذي قال في مقدمة ترجمته الألمانية للقرآن الكريم: ليس لدينا أي سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك آية في القرآن كله لم ترد عن محمد»[٢]. وهو يعني بذلك أن الإسلام لم يُحَرَّف.

والمستشرق «ماسينيون» الذي قال: «إن القرآن نظام عالمي واقعي موحى، فهو ينظم تطبيق كل حادثة من أحداث الوجود وشرحها وتقديرها»[٣].

ويقول المستشرق الفرنسي «ليبون»: «حسب هذا الكتاب إجلالًا ومجدًا أن الأربعة عشر قرنًا مرت عليه لم تستطع أن تجفف -ولو بعض الشيء- من أسلوبه الذي لا يزال غضًّا كأن عهده بالوجود أمسى»[٤].

وقال الأستاذ «دزريه بلانشيه» مؤلف كتاب «دراسات في الترايخ الديني»: «لقد أتى محمدٌ بكتاب تحدى به البشر جميعًا أن يأتوا بسورة من مثله، فقعد بهم العجز وشملتهم الخيبة وبهتوا أمام ذلك الإحراج القوي الذي أغلق في

(١) انظر: د/ محمود حمدي زقزوق: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» ص٣٤.
(٢) Rudi paret: Der koran Uebersetzung, stuttg art, ١٩٨٠. P. ٥.
(٣) انظر: د/ محمد غلاب: «نظرات استشراقية في الإسلام» ص٣١.
(٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

وجوههم كل باب»[١].

وهكذا نرى أن المنهج العلمي الملتزم بعرض الحقائق التاريخية من مصادرها الأصلية عرضًا واعيًا دقيقًا لا يتأثر بأغراض شخصية، سواء كانت دينية، أو اجتماعية، أو نفسية، أو اقتصادية، أو استعمارية، كان قليلًا ما يتبعه المستشرقون في تناولهم للإسلام ومعالجتهم للقضايا الإسلامية، وعلى رأسها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهي في رأيي عمدة مزاعم المستشرقين وأهم قضية يجب إثبات صدقها بالبراهين والأدلة القاطعة، التي لا يتطرق إليها الشك، ثم يأتي بعدها في المرتبة التالية ادعاءاتهم الأخرى، كقولهم أن القرآن لم يُدَوَّن في عصر الرسول، أو أنه أُدخل عليه تحريف أو تعديل أو زيادة. وكذلك تشكيكهم في السُّنة، وغير ذلك من الافتراءات الكثيرة؛ وذلك لأن القرآن لا يضره أن يكون دُوِّن في عهد الرسول، أو حُرِّف. طالما أنه أساسًا من مصدر بشري. فالقضية الأساسية إذن هي إثبات أن القرآن وحي من عند الله، وليس من وضع محمد صلى الله عليه وسلم، فإن هذا الادعاء يهدم الدين من أساسه، ولذا سيكون الاهتمام الأكبر في هذا البحث هو إثبات أن القرآن مُنزَّل من عند الله، وليس من وضع الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن كلام الله، ولا بد لمن يريد أن يحكم عليه أن يتفهمه ويدرسه دراسة منزهة من الأغراض، وأن يخلي ذهنه قبل ذلك من كل فكرة مسبقة، ويطهر قلبه من الحقد والكراهية، وينزه نفسه عن التعصب حتى يأتي حكمه موضوعيًّا نزيهًا. وعليه أن يتدبر معاني الألفاظ والآيات التي جاءت بالقرآن لعله بعد

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

ذلك يتقي الله في حكمه؛ قال تعالى: ﴿وقرآنًا عربيًّا غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾، وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

وكيف لهم أن يتدبروا القرآن وهم ليسوا متفقهين في الدين. بل إن منهم من يعتمد في فهم الإسلام على مصادر أجنبية، وليست عربية.

وليست المسألة أن يقدم الباحث -سواء كان مستشرق أو غيره- أقوالًا يعرضها كما يشاء أو كما يصورها له خياله وعقله؛ وإنما لا بد من تقديم الحجج والأدلة على صدق كل قول وصحة كل زعم؛ قال تعالى في أمثالهم: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾.

فهم لا يملكون إلا الظن الذي لا يغني عن الحق شيئًا، ويجادلون فيما ليس لهم به علم مخالفين في ذلك أبسط قواعد المنهج العلمي في البحث، والتي تطالب بتقديم الدليل القاطع والحجة البالغة، خاصة وأنهم يجادلون في موضوع خطير يتعلق بأقهم القضايا الإيمانية والعقائدية، مما لا يجوز معه التسرع في إصدار الأحكام دون دراية كافية بحقائق الأمور، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا﴾، وقال تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئًا﴾.

قال «ابن تيمية»: «من ظن أن ما لا يعلمه هو لا يعلمه غيره كان من جهله، فلا ينفي عن الناس إلا ما علم عنهم. وفوق كل ذي علم عليم، أعلم منه حتى

ينتهي الأمر إلى الله»[١].

إن من لا حجة معه فيما يأتيه فهو جاهل، وفي ذلك دليل على فساد التقليد -كما يقول القاضي عبد الجبار[٢]- وأن كل قول لا برهان معه لا يصح؛ قال تعالى: ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. فهؤلاء هم أهل الباطل الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله؛ لما في قلوبهم من زيغ؛ قال تعالى: ﴿أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾. فهم ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾. وصدق الله في قوله: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

الأجدر بهم أن يكفوا عن الكيد للإسلام ولرسوله، وأن يوفروا جهودهم لفهم القرآن فهمًا صحيحًا والوقوف على ما فيه من آيات دالة على وجود الله وعلى ما يحفل به من عبادات ومعاملات تقرب يبن العبد وربه، وتخلق مجتمعًا متوازنًا يسوده العدل والديمقراطية والحب والرحمة والمساواة والاطمئنان النفسي والأمن والأمان في الدنيا والآخرة.

---

(١) «مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية» صححه وعلق عليه/عبد الصمد شرف الدين، طبع الهند ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

(٢) انظر: القاضي عبد الجبار: «تنزيه القرآن عن المطاعن» ص٢٦٠.

obeikan.com

٣ـ الرد على المستشرقين:

إن المتأمل في القرآن الكريم يستطيع أن يجد ردًّا على كل ما وجه إلى الإسلام ونبيه من مطاعن. وهذا ما سيأتي تفصيله في الفصل الثاني.

وقبل الشروع في الرد على المستشرقين في زعمهم أن القرآن من عند محمد، وليس وحيًا من عند الله، أوجِّه لهم سؤالًا بسيطًا: هل هم يؤمنون بالله وبالوحي والنبوة أم أنهم ينكرون ذلك؟ فإذا كانوا يؤمنون بالله وبالنبوة فما المانع أن يكون محمد نبيًّا مرسلًا موحى إليه من الله، القادر على أن يبعثه رحمة للعالمين، ويكون خاتم الرسل، ودينه خاتم الرسالات؟! فما وجه استحالة ذلك على الله؟ هل هو التعصب الأعمى أم استكبار منهم أن رجلًا أميًّا بسيطًا يخصه الله بأكمل رسالات السماء وخاتمها، فيكون موقفهم كمشركي مكة الذين: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾. ومن الجدير بالذكر أن أغلب أقوال المستشرقين يحذون فيها حذو مشركي مكة المعاندين الذين كانوا يجادلون في الله بغير علم.

أمَّا إذا كانوا يكفرون بالله ورسله والوحي والنبوة، فإن موقفهم هذا ينسحب على الأديان جميعًا وليس على الإسلام فقط؛ يقو «الشهرستاني» في ذلك: «من المعلوم أن ليس كل أحد يعرف حكم الباري تعالى وأمره، فلا بد إذن من واحد يستأثر بتعريف حكمه وأمره في عباده، وذلك الواحد يجب أن يكون مخصوصًا من عند الله عز وجل بآيات خلقية يجريها الله على يديه، عند التحدي لما يدعيه وتدل تلك الآيات على صدقه، نازلة منزلة التصديق بالقول،

ثم إذا ثبت صدقه وجب اتباعه في جميع ما يقول ويفعل»[١].

وقال صاحب «شرح الطحاوية في العقيدة السلفية»: «إن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيًّا بعد نبي في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة: ﴿إن ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾، وبالجملة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول: إنه رسول الله، وأن أقوامًا اتبعوهم وأن أقوامًا خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك وعظماء الطب كأبقراط وجالينوس، وبطليموس وسقراط، وأرسطو وأتباعه»[٢].

ويدل على صدق أحوال الأنبياء التي علمناها بالتواتر والتي ذكرت بالكتب السماوية بأمور هي[٣]:

١- أنهم أخبروا الأمم بما يكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم.

٢- ومنها ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم.

٣- ومنها أن من عرف ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها

(١) انظر: الشهرستاني: «الملل والنحل» القسم الثاني، ص٣٨.

(٢) علي بن علي بن محمد: «شرح الطحاوية» ص٦٩.

(٣) المرجع السابق: ص٧٠.

تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأنه فيما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير، ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين أنه يصور عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق.

ويرى أنه إذا كان محمد عندهم ليس بني صادق، بل هو مفتري على الله، ويستمر في هذا الافتراء ثلاثًا وعشرين سنة، فكيف يؤيده الله وينصره ويعلي أمره ويمكِّن له من أسباب النصر الخارجة على عادة البشر، ويجيب دعواته ويهلك أعداءه ويرفع له ذِكْرَه[1].

كما نسأل المستشرقين: كيف لرجلٍ أُمِّي لا يعرف الكتابة والقراءة، ولم ينل أدنى قسط من التعليم أن يؤلف مثل هذا القرآن الذي يحوي من أمور الدين والدنيا والحقائق الكونية والنبوءات والأمور الغيبية ما يفوق قدرة محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره من البشر؟ ولذلك قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾. ويقول «الباقلاني»: «لم يحدث أن أنشأ إنسان كلامًا يزعم أنه على غرار القرآن ويثبت له ما للقرآن من صفات فنية. وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدى بالقرآن، بالخبر الذي يمثله. أتى به صلى الله عليه وسلم وظهر عليه. قال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾. وبرغم ما تحدوا وقرعوا وطولبوا بأن يقولوا على

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

شاكلته حقًّا أو مفترى وفيهم القراء، والخطباء، والبلغاء، والدهاة، والحكماء، وأصحاب الرأي والمكيدة والتجارب والنظر في العاقبة. وقد كان الكلام هو ما برعوا فيه وقد خاض به بيانهم، وجاشت به صدورهم وغلبت قوتهم عليه، فلهم الكثير من أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والأسجاع المنثورة(١).

فقد تحدى الله المشركين بأن يؤلفوا قرآنًا مثل الذي أوحى إلى محمد أو سورة مثله أو عشر سور، فعجزوا مع شدة بلاغتهم وبراعتهم وفصاحة بيانهم، وهذا إعجاز وتحدي من الله للكفار؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ(٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا﴾. فالحق سبحانه يتحدى كفار قريش في صناعة قد برعوا فيها؛ ليبين لهم عجزهم وليسلموا بأنه من عند الله، ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

وقد ذهب العلامة «ابن خلدون» إلى أن إعجاز القرآن إنما هو في وفاء الدلالة منه جمع مقتضيات الأحوال منطوقة مفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال

---

(١) الباقلاني: «إعجاز القرآن» تحقيق/عبد الرءوف مخلوف، ص١٩، وانظر أيضًا: كتاب «حجج النبوة» على هامش الكامل ص١٠٢.

(٢) {شهداءكم من دون الله} تعني أعوانكم وما تعبدون من آلهة، كما قال ابن عباس في تفسيره، انظر: ج١ ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ص٣٨.

فيما يختص بالألفاظ في إنشائها وجودة وصفها وتركيبها[١].

كما ذهب «الباقلاني» إلى أن إعجاز القرآن إنما كان من ثلاثة وجوه: الأول: الإخبار عن المغيبات، والثاني: أمية الرسول، والثالث: نظم القرآن. ويرى «الباقلاني» أن أمية الرسول كانت معروفة للجميع فهو لم يكن يعرف الكتابة ولا يحسن القراءة، وكذلك كان معروف من حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأبنائهم وسيرهم، ثم أتى يحمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات سيرهم، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه، ونحن نعلم أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذ كان معروفًا أنه لم يكن ملابسًا لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا مترددًا إلى التعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه علمًا أنه لم يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي[٢].

إنَّ القرآن كتاب الله جمع بين العبادات والمعاملات والعقائد وبين أمور الدنيا والآخرة، وبين العقل والروح والمادة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ففيه حديث عن الأخلاق الكريمة، ويصف النفس البشرية وطبيعتها وكيفية تهذيبها وتطويعها للخير وتزكيتها وتطهيرها من الشر. ويبين الصفات الحميدة التي يجب أن يتحلى بها الإنسان، وينبذ الأخلاق الذميمة التي يجب عليه تجنبها، وأوضح الله فيه الحق والباطل، والصواب والخطأ من سلوك الإنسان، وتصرفاته في جميع الأحوال والمناسبات. وتناول القيم الإنسانية؛

(١) ابن خلدون: «المقدمة» ص٤٠٧.

(٢) الباقلاني: «إعجار القرآن» تحقيق/عبد الرءوف مخلوف ص: ٥٠، ٥١.

فتحدث عن الحق والخير والجمال، واهتم بالعقل، ودعا إلى النظر العقلي ومطالعة المخلوقات، وتأمل الطبعية وملاحظة الظواهر التي تحيط بنا في السماء والأرض، وفي البر والبحر، ونفس الإنسان، فكانت دعوة صريحة لقراءة الحقائق في كتاب الكون: ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾، ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. والقرآن يفتح باب التساءل والبحث: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾. وتناول الأحداث التاريخية الموغلة في القدم. فقصى علينا قصص الأنبياء، والرسل، والشعوب القديمة، في العصور الغابرة، لنستخلص منها العبرة ولنجني الفائدة من تجارب السابقين. ثم حدثنا عن المستقبل فجاء كما حدث به، وهذا ما سيتضح تفصيلًا في موضعه.

حدثنا عن نشأة العالم وكيف بدأ الخلق، وكيف تكونت الأرض والجبال، وبين الحكمة من إرسائها على الأرض، وكيف جرت البحار والأنهار، وكيف وجدت عليها الموجودات، من كل جنس ولون. وحدثنا عن كروية الأرض، وتعاقب الليل والنهار ودورانها حول نفسها، الذي أدى إلى أحداثهما، ودورانها حول الشمس. وبين فيه كيف تسبح النجوم في أفلاكها في حركة دائبة منظمة ومقدرة كل في مداره الخاص به. وحدثنا عن هبوب الرياح وفوائدها وعن الأمطار وكيفية حدوثها.

وحدثنا عن الإنسان، وكيف كَرَّمه وجعله سيد الخلق وعلَّمه مالم يعلم، ووهبه العقل وفضَّله به على العالمين. ونظم له حياته على هذا الكوكب؛ من أكبر كبيرة إلى أصغر صغيرة تهمه في دنياه وآخرته، فوضع له منهجًا متكاملًا في الحياة فيه إشباع لحاجات الإنسان المادية والروحية والعقلية. ونظم له علاقته

بوالديه وعلاقته بأبنائه، وعلاقة الأبناء بالآباء، وعلاقة الزوج بزوجته، وواجب كل منهما تجاه الآخر، وعلاقة الإنسان بأهله وجيرانه وأصدقائه. وأوضح له كيفية تكوين أسرة سعيدة صالحة بطريقة شرعية منظمة، وبَيَّن أصول التربية السليمة للأبناء، وكيفية معاملتهم من الرضاعة إلى أن يشبوا، فجاء القرآن دستورًا للحياة الأسرية والاجتماعية يتضح فيه بجلاء ما ينفعه وما يضره في حياته الخاصة والعامة في مأكله ومشربه وفي ممارساته الجنسية وفي عواطفة وانفعالاته، ورسم له الطريق المستقيم في كل هذا، وأمره بالسير عليه، ووعده بالجزاء في الدنيا والآخرة. وأوضح له طريق الهلاك، وحذَّره منه، وحرمه عليه، وتوعده بالعقاب.

وتناول أدق تصرفات الإنسان كالوفاء بالعهد، والاستئذان من أصحاب البيوت قبل دخولها، وإلقاء السلام، ورد التحية بمثلها أو بأحسن منها، وحسن الجوار. في نفس الوقت الذي نظم له فيه أعظم الأمور التي تهمه في حياته الاجتماعية؛ كتقسيم تركة، بين الورثة والمعاملات الاقتصادية، والزواج والطلاق وغيرها.

واهتم بالعلاقات الإنسانية والاجتماعية، فوضع نظام للعلاقات بين أفراد المجتمع بجميع طبقاته؛ فأقامه على العدل والمحبة، والتعاطف بين الغني والفقير، وبين البائع والمشتري، وأوصى بالأمانة في الكيل والميزان، وحرَّم الغش بأنواعه في كل مجال، وحفظ الحقوق لأصحابها، وأوصى باليتامى والقصر، ويحدثنا عن الوصية والتبني، وجعل عتق العبيد كفارة لكثير من الذنوب، وأوضح أهمية التزام الوسط بين الإسراف والتبذير، وبين الشح والتقتير في كل شيء، مبينًا ضرر الإسراف في الملذات الحسية، وطالب منه في

نفس الوقت ألا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يتمتع بما أنعم عليه من خيرات، وأن يراعي في كل تصرف يتصرفه أن هناك آخرة وثواب وعقاب وجنة ونار.

وحث الإنسان على العمل وبذل الجهد، ووضع العمل في مرتبة العبادة، وأوصى بإتقان العمل وزيادة الإنتاج، وبين أهميته للفرد والمجتمع.

وحث على الاهتمام بالعلم وتحصيله، وكرم العلم والعلماء، وجعلهم في أعلى المراتب، وجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وحث على عدم التقليد والانقياد وراء الأفكار المتوارثة دون تمحيص أو تحقق من صدقها، فأرسى بذلك قواعد التفكير العلمي الموضوعي؛ قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون﴾.

وأمرنا بالالتزام بالنظافة والتطهير والاغتسال، وجعل النظافة الظاهرة التي تخص البدن والملبس، والنظافة الباطنة التي تخص القلب، والنفس، درجة من درجات الإيمان.

وحدث الإنسان عن أعدائه، وكيف يعاملهم، ومتى يحاربهم، وكيف يقتص منهم ويستعد للقائهم بالقوة المادية والمعنوية، وأمره إن جنحوا للسلم يسالمهم، وبيان كيفية معاملة الأسرى، وأوصى بألا يقاتل المسلم عدوه الأعزل من السلاح، حتى يكون هناك تكافئ فرص.

وحث على أهمية الشورى واختيار الحاكم، والتزام الديمقراطية في التعبير عن الرأي دون خوف أو تردد، بحيث لا يخشى المؤمن في الحق لومة لائم، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة على كل مسلم ومسلمة.

obeikan.com

وحمل الحاكم أمانة عظيمة جسيمة، ووضع له نظامًا يلزمه تجاه رعيته، وجعل كل مسؤل في أي موقع من المواقع ملزمًا بتحمل مسؤليته كاملة أمام الله وأمام الرعية، ونظم العلاقات الدولية بين الأمم في وقت السلم والحرب، وأخى بين الشعوب؛ لا فرق بين أبيض وأسود، ولا عربي ولا عجمي إلا بالتقوى والأخلاق الحميدة، محاربًا بذلك التفرقة العنصرية.

وجعل الإيمان بالأنبياء والرسل والكتب السماوية السابقة ضرورة عقائدية، وتناول العقائد فحدثنا عن الله وصفاته تعالى، وحدثنا عن البعث والحساب والجنة والنار والصراط وغيرها من الأمور العقائدية السمعية.

وحث على ضرورة الإيمان، وبين نتائجه النفسية والعقلية والمادية في الدنيا والآخرة.

وجادل الكفار، وقدم الحجج والبراهين على تهافت أقوالهم وبطلان مذهبهم، ورسم العبادات لتنظيم العلاقة بين الخالق والمخلوق، وبين الآثار المترتبة على هذه العلاقة من الناحية النفسية وخيرها للإنسان في جميع أمور حياته في الدنيا والآخرة، وبين ذلك كله في تفصيل دقيق وبأسلوب معجز، جمع فيه بين العقل والمنطق والقلب والعاطفة؛ قال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء﴾. وقد روى أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذرة والخردلة والباعوضة**»(١).

وقال ابن مسعود: «إذ أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء،

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة، والحافظ السيوطي في الإكليل في استنباط التنزيل، ص١٣.

ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن»[١] أي أن ابن مسعود يعترف أن القرآن به من العلوم والإشارات الكونية ما يعجز السلف عن فهم حقيقة معانيها؛ لأن علمهم كان قاصرًا. فقد جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علمًا وحقيقة إلا الله ثم رسوله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة، وإعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، ثم التابعون بإحسان[٢]. هذا فيما يرى «الحافظ السيوطي» ويمكن أن تقول أيضًا: وما استطاع العلماء بما منحهم الله من عقل وقدرة على البحث والكشف عن أسرار الكون وظواهره، أمكن أيضًا فهم حقيقة ما تشير إليه بعض سور القرآن الكريم كما سيتضح في موضعه بعد.

وقد قامت كل طائفة من العلماء بالاهتمام بفن من فنون القرآن، وعلم من علومه[٣]؛ فنوعوا علومه فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها وعدد كلماته وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته، وحصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة. واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء، والأفعال، والحروف، العاملة وغيرها. وأوسعوا الكلام في الأسماء، وتوابعها وضروب الأفعال، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا

---

(١) انظر: الحافظ السيوطي: «الإكليل في استنباط التنزيل».

(٢) انظر: السيوطي: «الإكليل في استنباط التنزيل» من ص: ١٢ إلى ص ١٦.

(٣) السيوطي: «الإكليل» ص١٣.

يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ وغيرها. فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله وقدمه وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا ذلك العلم بـ«أصول الدين».

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه؛ فرأت منها العموم ومنها ما يقتضي الخصوص، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة إلى المجاز، وتكلموا في التخصيص، والإضمار، والنص، والظهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة. وسموا هذا الفن أصول الفقه. وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيه من الحلال، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضًا.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم وآثارهم ووقائعهم، ثم ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص[1].

وتنبه آخرون على ما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ، فاستنبطوا ما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير والنشر والحشر والحساب والعقاب

(١) السيوطي: «الإكليل» ص١٣.

والجنة والنار، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ[١].

واستنبط قوم ما فيه من أحوال التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف عليه السلام من البقرات السمان، وفي منامي صاحبي السجن، وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم وسموه: تعبير الرؤية. واستخرج منه قوم علم المواقيت عندما نظروا إلى حديثه عن النجوم والبروج والليل والنهار.

ونظر الكتَّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة القول؛ فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان دقيقة جعلوا لها أعلامًا عليها، مثل: الفناء، والبقاء، والحضور، والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض والبسط، وما شابه ذلك. وهو علم التصوف. كما احتوى القرآن على علوم أخرى مثل: الطب، والطب النفسي، والجدل، والهيئة، والهندسة، والنجامة وغيرها[٢].

وربما جعل هذا الاهتمام الكبير بعلوم القرآن وفنونه من جانب علماء الإسلام مستشرق مثل «جولد تسيهر» يدعي أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ألَّف القرآن، ثم زاد العلماء المسلمين عليه وأضافوا الكثير، فهو ليس من وضع محمد صلى الله عليه وسلم وحده، وإنما هو أيضًا من صنع الأجيال التي جاءت بعد ذلك، كما سبق القول. ولم يستطع «جولد تسيهر» أن يفرق يبن جوهر الإسلام وأساسه، وهما الكتاب والسُّنة، وبين العلوم المختلفة التي قامت

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) انظر: الحافظ السيوطي: «الإكليل في استنباط التنزيل» ص: ١٢ إلى ١٦.

عليها، ونسي أن القرآن لم يتغير ولم يتبدل ولم يضاف إليه ولو حرفًا واحدًا منذ كتب كما أنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإن السنة بعد أن دُونت ظلت كما هي دون زيادة عليها. وإنما هي مجرد دراسات وعلوم دينية لغوية وغيرها حول القرآن ولا تدخل في صميمه. وكذلك الحال بالنسبة للسُّنة.

والآن يحق لنا أن نسأل المستشرقين: كيف لمحمد الذي لم ينل أدنى قسط من التعليم أن يتناول كل هذا بالبحث ويكتب فيه؟ فإذا صح ذلك فإنه يعني أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد انتقل فجأة ودون مقدمات من إنسان أمي لا يقرأ ولا يكتب إلى عالم حكيم، وإذا كان حكيم لهذه الدرجة وقادر على تأليف القرآن بما يشمله من مناهج متكاملة لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة، وما جاء به من إشارات كونية وحديث عن كل شي، فلماذا لم ينطق بهذه الحكمة إلا بعد أن بلغ الأربعين من عمره.

فهل العبقرية تتفجر في هذا السن؟ من كان يضمن له أنه سيعيش إلى سن الأربعين لكي ينطق بهذه العبقرية ولا يموت قبل أن يفجرها؟[1] قال تعالى: ﴿لو شاء الله ما تليته عليكم ولا أدراكم به لقد لبثت فيكم عمرًا من قبل أفلا تعقلون﴾.

إن الناس يدعون من الكمال ما ليس لهم، فلماذا ينسب إلى محمد صلى الله عليه وسلم أنه هو واضع القرآن، فينكر ذلك وينسبه إلى الله، فهل هناك

(١) انظر: محمد متولي الشعراوي: «هذا هو الإسلام» ص٣٢.

شخص يعزا إليه هذا الكمال ثم يقول هذا ليس من عندي؟[١]

ونسأل المستشرقين أيضًا: ما الدافع الذي جعل الرسول يتحمل كل ألوان الأذى والمعاناة التي تعرض لها من جانب كفار مكة، ويحتمل كل ما تعرض له من جوع وخطر يهدد حياته ويدخل في حروب مع قومه إذا لم يكن متيقنًا من صدق الوحي خاصة، وأنه لم يكن له أغراض أخرى غير نشر الدين الإسلامي وتبليغه للناس؟ فهو لم يكن يطمع في جاه أو سلطان، ورفض كل ذلك وأصر على صدق نبوته، وآثر الفقر والجهاد في سبيل دعوته.

وقد ثبت في الصحيحين -البخاري ومسلم- من حديث ابن عباس، عن عمر بن الخطاب: دخل عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم في علية فإذ ليس فيها سوى صبرة (أي قليل من الطعام) من فرط وأهبة معلقة، وصبرة من شعير، وإذا هو مضطجع على رمال حصر (أي حصر مزين) قد أثر في جنبه، فهملت عينا عمر، فقال: **«ما لك؟»**. فقلت: يا رسول الله، أنت صفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هم فيه. فجلس محمرًا وجهه فقال: **«أو في شك أنت يابن الخطاب؟!»**، ثم قال: **«أولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»**[٢]. وعن ابن مسعود قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر بجلده، فجعلت أمسحه وأقول: بأبي أنت وأمي، ألا أذنتنا نبسط لك شيئًا يقيك منه تنام عليه؟ فقال: **«ما لي والدنيا، ما أنا والدنيا إلا**

(١) انظر: محمد متولي الشعراوي: «هذا هو الإسلام» ص٣٢.

(٢) أخرجه الكرماني ١٩: ١٣٠، «فتح الباري» لابن حجر: ٩: ٢١٨، «عمدة القارئ» ٨: ٧٨، وأخرجه مسلم في الزهد.

كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ثلاثًا من خبز بُر حتى قبض، وما رفع من مائدته كسرة قط حتى قبض»[٢]. وهذا يعني أنه كان وآل بيته يعيشون على الكفاف زهدًا في الدنيا وتقشفًا[٣].

والأمثلة على زهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتقشفه كثيرة يصعب حصرها في هذا المقام، والذي أبغي توضيحه أن من يتمسك بشيء ويدعي كذبًا صدقة، فلا بدَّ أن يكون له في ذلك منفعة خاصة، أقلها أن يوفر لنفسه وآل بيته حياة رغدة هادئة مريحة، والمعروف من سيرة الرسول -كما سيتبين لنا بعد- أن حياته وحياة ذوية كانت شديدة التقشف محفوفة بالمخاطر حافلة بالكفاح والجد والتعب، وأنه ذاق الأمرين من عذاب أعداء دينه وتنكيلهم به، فهو لم يكن في حاجة إلى هذه المعاناة خاصة وأن زوجته خديجة كانت ثرية، وكان يعيش معها من دخل التجارة في رغد من العيش. فما الدافع له وراء كل ذلك؟! وما القوة التي تجعله يتحمل كل هذا العذاب والهوان؟ ولماذا الصبر عليه؟ وما الذي كان يقوي إيمانه بأن الغلبة له ولدينه لا محالة رغم قلة أتباعه وضعف حيلته وهوانه على الناس، وقلة عُدته وقوة أعداء دينه وجبروتهم، وكثرة عددهم وعدتهم؟ ما كل هذه الثقة التي كان يتمتع بها في نصر الله له؟ من أين

---

(١) أخرجه الكرماني في شرحه: ١٨: ٤٥، و«فتح الباري» لابن حجر: ٨: ٣٩٧، و«عمدة القارئ» للعيني ٩: ٨٠، «شرح القسطلاني» ٧: ٢٧٩، والبخاري ومسلم في الزهد.

(٢) «شرح الكرماني» ١٨: ٥٠، «فتح الباري» لابن حجر ٨: ٢٠٦، «عمدة القارئ» للعيني ٩: ١٠٠، ومسلم والبخاري في الزهد.

(٣) خليل إبراهيم: «عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم» ص٢٢.

جاء بها؟ وكيف كان يعد أصحابه بالنصر ويؤكد لهم ذلك مرات ومرات؟ ولماذا كان صادقًا في كل ما توقع حدوثه وأخبر به عن انتصاراته الساحقة على أعداء دينه؟ لا بد للمرء أن يقف أمام كل هذا ويتأمله ولا يمر عليه مر الكرام حتى لا ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يبصرون﴾، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

ونسأل المستشرقين: هل كان صحابة رسول الله الذين آمنوا بدعوته، وصدقوا قوله، ووقفوا بجانبه لنصرة دين الله، وبذلوا في سبيل ذلك كل عزيز وغال، وضحوا بأنفسهم وأولادهم وأموالهم في سبيل الله، واستطاعوا بقوة إيمانهم أن ينشروا الدعوة في الجزيرة العربية وخارجها، في مشارق الأرض ومغاربها، حتى بعد وفاة الرسول، ظلوا على قوة إيمانهم، ولم تفتر هممهم، هل كانوا بلهاء حتى يفعلوا ذلك؟ هل كانوا من السذاجة لدرجة أنهم لا يستطيعون التفرقة بين الصدق والكذب؟ هل انخدعوا في محمد صلى الله عليه وسلم بكل هذه السهولة والبساطة؟

لا يظن عاقل ذلك ولا شك أن صحابة الرسول كانوا يستطيعون لا يميزوا بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، فما كانوا له بمؤمنين لولا أن رأوا منه ما يؤكد لهم صدقه وسلامة دعوته، وما كان عرب الجزيرة العربية يؤمنون بالإسلام عن بكرة أبيهم، لولا أن رأوا برهان ربهم وثبت صدق نبوة محمد، وانكشف كذب الكافرين، وزهق الباطل وظهر الحق وسطعت أنوار الحقيقة. يقول «علي بن محمد بن أبي العز» في ذلك: «فمن يدعي الطب لا بد له أدلة تثبت صدقه، كذلك من يدعي الفلاحة، والفصاحة، والكتابة، والفقه، والنحو وغيرها. والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، فكيف

يشتبه الصادق فيها بالكاذب؛ قال تعالى: ﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾. فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من قرائن، فكيف يدعي المدعي أنه رسول الله؟ كيف يخفى صدق هذا من كذبه بوجه من الوجوه»(١).

ويقول «ابن تيمية» في كتاب «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»: «إذا كانت الرسل والأنبياء قد اتبعهم أمم لا يحصى عددها إلا الله من غير أن يعتمدوا على هذا الطريق (أي طريق الجدل) وهم يخبرون أنهم علموا صدق الرسول يقينًا لا ريب فيه. وظهر من أقوالهم وأفعالهم ما يدل على أنهم عالمون بصدق الرسول، متيقنون لذلك، لا يرتابون فيه، وهم عدد كثير أضعاف أضعاف أضعاف أي تواتر قدر، فعلم أنهم لم يجتمعوا ويتواطئوا على هذه الأخبار الذي يخبرون به عن أنفسهم، علم قطعًا أنه حصل لهم علم يقيني بصدق الرسول»(٢).

ومن المعروف أنهم لم يؤمنوا بما جاءهم به الرسول بمجرد أن دعاهم إليه؛ بل إنهم في بداية الأمر رفضوا تصديقه، وحاربوه حتى تبين لهم صدقه وتيقنوا من أنه على حق؛ حينئذ أقبلوا عليه، وناصروا دينه، ودخلوا فيه أفواجًا.

أوليس من معجزات القرآن العظيم أنه أنشأ حضارة في قوم كانوا على قدر كبير من التخلف والبداوة؟ تلك الحضارة التي استطاعت أن تجوب العالم في عصور الظلام لتنيره وتفتح الطريق أمام العقل الإنساني؛ ليبحث ويتعلم ويحصل العلم أن القرآن خرج بالعرب من أن يكونوا قبائل عديدة مختلفة

(١) انظر: «الطحاوية في العقيدة السلفية» ص٦٦.

(٢) ابن تيمية: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» ص٧٦.

الأهواء والنزعات، ومختلفة الآراء والمعتقدات إلى أن يكونوا أمة واحدة هي الأمة الإسلامية، وذات كيان واحد وعقيدة واحدة هي العقيدة الإسلامية.

ألم يسأل المستشرقون أنفسهم كيف لكتاب واحد كالقرآن أن يحدث هذه التغيرات في الناس فينقلهم من الحروب والتطاحن على أتفه الأسباب إلى المحبة والسلام والوئام والتعاطف، حتى يأثر الواحد منه أخيه في الدين على نفسه ولو كان به خصاصة.

إنَّ الجدير بهم أن يدرسوا الإسلام للاستفادة من تجربته في تحويل المجتمع من مجتمع الغابة إلى مجتمع متحضر، ومن الجهل إلى العلم، ومن العداء إلى المحبة، ومن السرقة والنهب والإجرام إلى الأمن والأمان[١].

إن للرسول معجزات[٢] كثيرة قد أيده الله بها، وقد رآها قومه وشهدت بها

---

(١) د/محمد أحمد خلف الله: «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة» ص٤٣ يتحدث فيه عن الحضارة التي استطاعت أن تجوب العالم في عصور الظلام ليتنزه وتفتح الطريق أمام العقل الإنساني ليبحث ويتعلم ويحصل العلم.

(٢) من معجزات الرسول: انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره ما كان وما يكون، وإيتائه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات عديدة، كما شبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص، وما روى العسكر في غزوة خيبر من زيادة الماء ولم ينقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفًا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى شرب جميع من معه في غزوة الحديبية وكانوا نحو ألف وأربعمائة، ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرأت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلًا كلًّا منهم جزله قطعة وتبقى منه وغيرها، فقد ذكرت للرسول صلى

كتبهم، ودوَّنوها في كتب الآثار والسيرة، غير أني لن أتحدث عنها لأنها حدثت في عصر الرسول ولم يراها غير معاصريه، ولكن القرآن وهو معجزة المعجزات لا يزال باقيًا يستطيع كل إنسان أن يراه ويطلع عليه ويقف على ما جاء به من كنوز ليعرف أن الله حق وأن النبوة حق، وأن محمدًا رسول الله، وأن القرآن كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحدثنا عن أخبار الماضي، وتحدث عن المستقبل فجاء كما حدث به دون اختلاف، وهذا ما سيتضح بعد تفصيلًا. ووصف الواقع وصفًا دقيقًا لم يعرف المفسرون حقيقة ما تحمله آياته من إشارات إلا بعد أن أزاح العلم الحديث الغموض عنها ووصل إليها بعد أربعة عشر قرنًا من نزول القرآن، وهذا ما سنقف عليه معًا ان شاء الله، وقد قال «ابن حيان التوحيدي» عن بعض السلف: «ليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه، فذلك حارت فيه العقول وتاهت الأبصار عنه»(١).

وقال الحافظ السيوطي: «إن أكثر معجزات الأمم السابقة كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم؛ أما هذه الأمة فقد جعل أكثر معجزاتها عقلية؛ وذلك لذكائهم وكمال أفهامهم وفضلهم على من تقدمهم من الأمم»(٢).

إن ما ذاعه المستشرقون من أقوال لا أساس لها يهاجمون بها الإسلام

الله عليه سلم نحو ألف معجزة ذكرتها كتب الصحاح كالبخاري ومسلم في صحيحيهما، والطبري والبيهقي وغيرهم، انظر كتاب: «مجموعة التوحيد» لابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ص: ٥٦٠، ٥٦١، وانظر أيضًا: د/سهير فضل الله أبو وافية: «الفكر الإسلامي يرد على المستشرقين».

(١) محمد صالح البندار: «المستشرقون» ترجمة القرآن الكريم ص٤١.

(٢) الحافظ السيوطي: «الإكليل في استنباط التنزيل» ص١٤٢.

ورسوله إن دلت على شيءٍ إنما تدل على الجهل بالأمور وحقيقتها، وعلى التعصب الأعمى والآراء الحمقاء، وكل أقوالهم مردودٌ عليها.

فزعمهم أن القرآن لم يُدوَّن في عصر الرسول ناتج عن تقصيرهم في البحث التاريخي المتعمق، والباحث المدقق في كتب التراث يجد أن القرآن قد بدأ تدوينه منذ نزوله؛ بل عندما كانت الدعوة سرًّا بين الأقرباء المقربين للرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أطلق الله سبحانه وتعالى على القرآن لفظ كتاب، وجعله مرادفًا للقرآن؛ قال تعالى: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾. كما أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين﴾.

وهذه الآيات مكية؛ أي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، وهي توضح أن القرآن قد كتب في صحف، وأنه كتاب الله الكريم.

كما جاءت إشارة إلى ذلك في القرآن النازل على الرسول في المدينة في قوله تعالى: ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، وفي قوله تعالى: ﴿آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق﴾.

وقد نوه الله تعالى بشأن الصحف التي تحمل الوحي، وتيسر للناس مطالعته في السور المكية والمدنية في مثل قوله تعالى: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام برررة﴾، وهي سورة مكية، وقوله تعالى: ﴿رسولًا من الله يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة﴾[1]،

(١) انظر: محمد الغزالي: «نظرات في القرآن» ص٢٤، طبعة ثالثة.

وهي سورة مدنية، ويذهب الشيخ «محمد الغزالي»[١] أن التنويه بوظيفة القلم في نشر هذه المعرفة السماوية وحظ الكتابة في إشاعة هذا القرآن واستيفائه على مر الزمن، هو سر القسم في الآيات: ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾.

وعندما توفي الرسول كان القرآن مكتوبًا كله مقروءًا كله، فلا معنى لتسميته كتابًا إذا كان غير مكتوب، ولا معنى لتسميته قرآنًا إذا كان غير مقروء؛ قال تعالى: ﴿وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾.

ويذهب «السيوطي» في كتاب «الإتقان» نقلًا عن بعض شيوخه إلى أنَّ القرآن جمع ثلاث مرات:

- **المرحلة الأولى:** في عهد الرسول حيث كان يكتب على الجزء العريض من سعف النخيل وعلى الأديم أو الجلد، وعلى الأحجار المصقولة «المرققة» والتي أعدت خصيصًا للكتابة عليها ووضعت السور منظمة.

- **المرحلة الثانية:** في عهد أبي بكر، وكان ذلك بمثابة جمع القرآن كله في مصحف واحد.

- **المرحلة الثالثة:** في عهد عثمان؛ وكان ذلك بمثابة نشر لهذا المخطوط في محاولة توحيد القراءة في المناطق الإسلامية المختلفة[٢]. وعندما توفي الرسول كان القرآن مكتوبًا كله، مقروءًا كله؛ ففي المرحلة الأولى في حياة الرسول كان

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) انظر: السيوطي: «الإتقان» ج١ ص٩٨.

جبريل ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بالوحي، فكان الرسول يردد ما يقرؤه عليه جبريل من القرآن محاولًا حفظه حتى لا ينساه، وقد جاء في «صحيح البخاري» عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه[١]، وكان يعرف منه[٢]، فأنزل الله الآية التي في «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لا تحرك به لسانك لتجعل به إنا علينا جمعه وقرآنه﴾. قال: علينا أن نجمعه في صدرك، وقرآنه[٣]، ﴿فإذا قرأناه[٤] فاتبع قرآنه ثم إنا علينا بيانه﴾ أي: إذا أنزلناه فاستمع فقط، ثم علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله. وقال تعالى: ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾.

ومن ذلك يتضح لنا كم كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يحفظ ما يقوله جبريل من كلام الله حتى أنه كان يردده مرارًا أثناء قراءة جبريل له محاولًا حفظه، ويخشى أن ينسى منه شيئًا، فطلب منه الله تعالى ألا يفعل ذلك وأن يستمع فقط، وطمأنه إلى أنه لن ينسى ما يُتلى عليه.

وقد استطاع استعادته كما أُنزل عليه بقدرة الله، فعلى الله جمعه وقرآنه،

---

(١) أي يشتد عليه حال نزول الوحي؛ لثقله: {إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا}.

(٢) ذلك الاشتداد حال نزول الوحي عليه: عن ابن أبي عائشة كان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره. انظر: صحيح البخاري ج٢ ص٢٢٣.

(٣) أي أن تقرأه أنت.

(٤) قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام.

openkan.com

ومنذ نزول تلك الآيات على الرسول كان عندما ينزل عليه جبريل يسمع في هدوء وسكينة؛ اطمئنانًا لوعد الله تعالى له بأنه لن ينسى شيئًا مما يقرأه عليه الوحي، وقد كان وعد الله حقًّا مفعولًا.

وكان جبريل يعرض على الرسول مرة كل سنة ما أنزل عليه من القرآن، ويراجع معه ترتيب الآيات في السور في شهر رمضان؛ يقول «ابن تيمية»: «إن كتاب الله آيات بينات، في صدور الذين أتوا العلم، وأنه لا يغسله الماء، وأن الله حافظ له، وأن الله يقرئ نبيه فلا ينسى، وأن جبريل كان يعارض النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام في شهر رمضان، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه آية أقرأها لعدد من المسلمين يتواتر نقل الآية بهم»[١].

فالقرآن هو الكتاب الوحيد الذي اختصه الله بالحفظ والخلود؛ لأنه يحمل خاتم الرسالات، ولأنه دعوة للناس كافة في جميع أنحاء المعمورة، فهو حقيقة محصنة من التحريف وتغالب الفناء، والتاريخ نفسه يشهد بذلك، وفي ذلك يقول «محمد الغزالي»: «إن الأدلة التاريخية المختلفة قد ترشح ببعض الحق، أما الحالة بالنسبة للقرآن فإن الشواهد على صدقه تجيء سيلًا غداقًا، ينفي بطبيعته الشبه ويؤسس اليقين تأسيسًا»[٢]. فجبريل عليه السلام ينزل بالوحي من عند الله والنبي يقرأ ما يجيئه به، والصحابة يسمعون ويحفظون، ويدونون، ويعرفون من الرسول حقيقة النظم القرآني وأسلوب أدائه؛ كأنواع المد، ومخارج الحروف، وهذا التلقي والتكرار للقراءة والحفظ، دام قرابة ربع قرن. الرسول

(١) تقي الدين ابن تيمية: «الصارم المسلول على شاتم الرسول».

(٢) انظر: محمد الغزالي: «نظرات في القرآن» الطبعة الثالثة، ص٢٧ وما بعدها.

صلى الله عليه وسلم يحفظ عن جبريل وأصحابه يأخذون عنه ويحفظون، ويتلون دائمًا في الصلوات الموقوتة، وفي صلوات التطوع، ويقضون به، ويخطبون به في خطبهم، ويدرسونه في مجالس العلم. فما أن ينزل شيء من القرآن حتى تستوعبه الصدور، ثم ترده في كل أفق الآلاف المؤلفة من الناس، آناء الليل وأطراف النهار، وبهذا التواتر الرائع ثبت القرآن ثبوتًا لا مجال فيه للظنون والأوهام[١].

وقد قال «السيوطي»: «والأمة كما هي متعبدة بفهم معاني القرآن وأحكامه، متعبدة بتصحيح ألفاظه على الصفة المتلقاة من الأئمة القراء، وهي الصفة المتصلة بالحضرة النبوية»[٢] أي أنه لا يكفي الأخذ من المصاحف بدون تلق من أفواه المشايخ المتقنين للتلاوة، فمعرفة أحكام التلاوة وتطبيقها عند قراءة القرآن، شرط أساسي لصحة القراءة.

وفي العام الأخير من حياة الرسول راجع جبريل القرآن مع الرسول مرتين، وكان ذلك للتأكد من وضع الآيات في أماكنها من كل سورة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«مرحبا يا ابنتي»**، ثم أجلسها عن يمينه، ثم أسر إليها حديثًا فبكتْ، فقال لها: **«لم تبكين؟»**. ثم أسر إليها حديثًا فضحكت، فقلت (أي عائشة): ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) الحافظ السيوطي: «الإتقان» ج١ ص٩٩.

عليه وسلم. حتى قُبض النبي صلى الله عليه وسلم، فسألتها فقالت: أسرَّ النبي إليَّ: **«إن جبريل كان يعارضني[١] القرآن مرة كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين[٢]، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقًا بي»** فبكيتُ، فقال: **«أَمَا ترضي أن تكوني سيدة نساء المؤمنين؟!»** فضحكت لذلك[٣].

وقال «السيوطي»: «إن الرسول لم يجمع القرآن في مصحف بسبب ما كان يترقبه من إمكان ورود نسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى ذلك بوفاة الرسول ألهم الله الخلفاء بأن يقوموا بجمعه في مصحف واحد»[٤].

وهذه هي المرة الثانية التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر.

وقد تناول البخاي ومسلم وغيرهما من كتب الصحاح مسألة جمع القرآن؛ ذكر البخاري عن زيد بن ثابت: «أرسل أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة[٥]، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أنبأني أن القتل قد استحر (أي كثُر) يوم اليمامة بالقراء بالمواطن (أي أماكن القتال) فيذهب كثير من القراء، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر

---

(١) المعارضة: المقابلة والمدارسة.

(٢) على خلاف عادته.

(٣) انظر: «شرح الكرماني» ١٤: ١٨٣، «فتح الباري» لابن حجر ٦: ٤٦٢، «عمدة القارئ» للعيني ٧: ٥٦٨، «شرح القسطلاني» ٦: ٦٧ وأخرجه في (الخمس)، ومسلم في (الفتن)، وصحيح البخاري: ج٢ ص١٩.

(٤) السيوطي: «الإتقان» ج١ ص٩٨.

(٥) موقعة أهل اليمامة قُتل فيها سبعمائة من أصحاب الرسول في حرب مسيلمة الكذاب.

يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك رأي عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فأجمعه. فوالله[١] لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال[٢]: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسيب (أي جريد النخل العاري من الخوص، وكان يختار للكتابة منه طرفه العريض) و«اللخاف» (ألواح من الحجارة البيضاء الرقيقة)، وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة «التوبة» مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ وهي من الآية ١٢٨ من سورة التوبة حتى خاتمة البراءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توافاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عُمر رضي الله عنهما»[٣].

وهكذا جُمِع القرآن في مصحف واحد في عهد أبي بكر.

أمَّا جمع القرآن للمرة الثالثة فكان في عهد عثمان رضي الله عنه؛ فقد خشي على القرآن من اختلاف لهجات القراء في الأمصار المختلفة التي دانت بالإسلام، فأمر بجمعه في مصحف، مستعينًا في ذلك بالمصحف الذي دُون في

(١) هذا من كلام زيد بن ثابت.

(٢) القائل أبو بكر الصديق.

(٣) انظر: «الألف المختارة من صحيح البخاري» ج٢ ص٢٢٦.

عهد أبي بكر. وكان كما سبق القول عند السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، وبالحفظة من الصحابة. وقد اتبعوا في ذلك أدق الطرق للجمع، وكانوا شديدي الدقة والتدقيق والحرص على أن يكتب القرآن كما أنزل على الرسول، وبنفس الترتيب الذي تركه عليه.

فقد روي في هذا الشأن أن أنس بن مالك قال: «إن حذيفة ابن اليمان قدم على عهد عثمان (أي قدم المدينة) -وكان يغازي أهل الشام في فتح آرمينيا وأذربيجان مع أهل العراق- فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصاري[1]. فأرسل عثمانُ إلى حفصة: أَنْ أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في مصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلتْ بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف[2]، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة (وهم سعيد الأموي، وعبد الله الأسدي، وعبد الرحمن المخزومي، وكلها بطون قريش): «إذا اختلفتم (أي اختلفوا في اللهجة والنطق) أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم». ففعلوا حتى إذا نسخوا المصحف في المصاحف، ورد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق (أي كل بلد) بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل

(١) أي في التوراة والإنجيل.

(٢) ذكر «السجستاني» في كتاب المصاحف أنهم كانوا اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار، ومنهم: مالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس، وكثير بن أفلح، وأُبي بن كعب، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس.

صحيفة أو مصحف أن يحرق»[١].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر في حياته بعدم تدوين السُّنة، حتى لا تختلط بالقرآن، فكان الصحابة في عهد الرسول يدونون القرآن فقط حرصًا على أن يظل كما أُنزل.

وإذا علمنا ذلك وعلمنا أيضًا أن العرب اختصوا بتذوق الأدب الرفيع والعبارات البليغة، فكانت هذه صناعتهم، وأنهم قوم لهم قدرة عظيمة على الحفظ والاستيعاب، وأن القرآن هو المعجزة الأدبية الخالدة في لسان العرب نفذت بلاغته إلى قلوبهم. وعلمنا أن الله قد رغب في قراءة القرآن واستماعه بإنصات وتدبر، وجعل على ذلك أجرًا عظيمًا؛ قال تعالى: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾. وأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصى بحفظ القرآن وتلاوته فقال: **«خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه»**[٢]. وقال: **«ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»**[٣]. وغير ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة التي

---

(١) انظر: «الكرماني» ١٩: ٦، و«فتح الباري» لابن حجر ٩: ٨، و«عمدة القارئ» للعيني ٩: ٣٠٣، و«شرح القسطلاني» ٧: ٤٤٦، والترمذي في التفسير في «فضائل القرآن»، وانظر: «الألف المختارة من صحيح البخاري» ج٢ ص: ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) «شرح الكرماني» ١٧: ٣، «فتح الباري» ٨: ١١٩، «عمدة القارئ» للعيني ٨: ٤٥٣، «القسطلاني» ٧: ٤، وأبو داود والنسائي في «فضائل القرآن»، والبخاري ومسلم في فضائل القرآن والصلاة.

(٣) أخرجه الكرماني ١٧: ٤، «فتح الباري» ٨: ١١٩، «عمدة القارئ» ٨: ٤٥٤.

تحث المسلمين على قراءة القرآن وحفظه. وإذا علمنا ذلك كله تبين لنا بوضوح كذب ادعاء المستشرقين الذين يشككون في أنَّ القرآن أدخل عليه تحريف وحُذِف منه وأُضيف إليه، وأنه لم يُدون في عصر الرسول وإنما دُوِّن في عصر عثمان.

أمَّا زعم المستشرقين الذين يدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاني من حالات نفسية مرضية تجعله يتخيل أو يتصور أنه نبي؛ كما زعم المستشرق «دوزي» -الذي قال كما ذكرنا آنفًا- أن حالة الاستغراق التي شوهدت عند محمد صلى الله عليه وسلم كانت ناشئة عن مرض يطلق عليه «الهستيريا العضلية»، وقد استند في رأيه هذا إلى تشخيص الحكم الألماني «سبرنجر» «Springer». فهو أمر يثير العجب كيف استطاعوا تشخيص مرض كان يعاني منه الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاثة عشر قرنًا -أن ذلك لم يحدث في تاريخ الطب النفسي إلا في هذه الحالة، وهو تجني عظيم.

ومن المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عندما ينزل عليه الوحي بالقرآن يصير في حالة من الوجد والانجذاب، فيغني عما حوله، ويغني عن نفسه، ويبقى في حالة تلقي كامل عن جبريل فلا يشعر إلا به، ولا يسمع إلا ما يقول، وذلك يتضح من روايات الصحابة؛ ومن ذلك ما رواه زيد بن أسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره[1]، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلًا، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه،

(١) هو سفر الحديبية.

فقال عمر: ثكلت أم عمر[١] نزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك!! قال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيَّ القرآن، فما نشبت[٢] أن سمعت صارخًا يصرخ بي (أي شخص يناديه) فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه، فقال: «**لقد نزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**» ثم قرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾[٣].

ومن هذه الرواية وأمثالها يتبين لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما كان ينزل عليه الوحي، يبقى في حالة وجد وفناء، وهذا جعل مشركي زمانه يقولون: إنه ﴿معلم مجنون﴾، ولا يزال أعداء الدين يرددون هذا القول إلى اليوم ويقولون: إنه مصروع لهذا السبب[٤].

وقد جاء في «صحيح البخاري» عن السيدة عائشة رضي الله عنها: إن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله عليه الله عليه وسلم: «**أحيانًا يأتيني مثل**

---

(١) دعا عُمر على نفسه أن تثكله أمُّه -أي تفقده بموته- وذلك لما وقع منه من إلحاح على الرسول وهو يتلقى الوحي.

(٢) أي لبثت.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» ج٢ ص٢١٥، و«شرح الكرماني» ٨: ٩٤، «فتح الباري» لابن حجر ٨: ٤٤٧، «عمدة القارئ» للعيني ٩: ١٥٢، «شرح القسطلاني» ٧: ٣٤٥، وأخرجه في المغازي.

(٤) انظر: أحمد عزت: «الدين والعلم» ص٩٣.

صلصلة الجرس وهو أشد عليَّ[١] فينفصم[٢] عني وقد وعيت منه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا يكلمني فأعي ما يقول»[٣]. ولا يتحتم في هذه الحالة أن يتجرد جبريل من روحانيته، أو أن ينقلب رجلًا؛ بل المقصود أنه يظهر للرسول بتلك الصورة البشرية، حتى لا ينخلع الرسول من صورته البشرية، إلى الصورة التي عليها جبريل، وهذا مما يرهقه صلى الله عليه وسلم. أما إذا جاء جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في شكل رجل، فإنه في هذه الحالة لا يرهق الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر «السيوطي» في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» أن جبريل إذا جاء للنبي صلى الله عليه وسلم بصورته الملكية فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ينخلع من الصورة البشرية إلى الصورة التي عليها جبريل ويأخذ القرآن عنه. ولا يستلزم هذا أن يغيب جثمان الرسول عن الوجود آنذاك[٤]؛ أي أن تغيرًا ما كان يحدث للرسول حتى يمكنه أن يتلقى عن جبريل، ولا شك أن من يكون مجالسًا للرسول في تلك اللحظات يشعر بذلك التغير الذي يبدو أثره ظاهرًا على الرسول صلى الله عليه وسم، كما جاء في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها إذ قالت: «لقد رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينفصم

---

(١) كان جبريل إذا جاء الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة ملك فيؤثر فيه ويرهقه.

(٢) أي: يغادرني وينفصل عني.

(٣) السيوطي: «الإتقان» ج١ ص٧٤.

(٤) السيوطي: «الإتقان» ج١ ص٧٦، ارجع إليه لمعرفة المزيد عن نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم.

عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا»[١]. وإذا نزل الوحي على الرسول في صورته الملكية لا يراه غيره، أما إذا نزل عليه في صورة بشرية فإن رؤيته تكون ممكنة للغير. وقد روى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قال: «كنا جلوسًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر للسفر، ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال الرسول: **«أن تشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا»**. قال: صدقتَ. قال (أي عمر): فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه!! قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: **«ما المسئول عنها بأعلم من السائل»**. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: **«أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة، يتطاولون في البنيان»**. ثم انطلق، فلبث مليًّا ثم قال (أي الرسول): **«يا عمر، أتدري من السائل؟»**. قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**[٢].

فها هو جبريل يراه أصحاب الرسول بعين رأسهم وهو يحادث الرسول

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه في الجزء الأول، باب بدء الوحي.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، وانظر: «حاشية النبراوي» ص٤٥.

أمامهم؛ ليعلمهم أمور دينهم، ولا شك أن الصحابة رأوا بأنفسهم من الأدلة والبراهين الدالة على صدق الرسول ما جعلهم يثقون في أنه نبي مرسل ويؤمنون برسالته إيمانًا راسخًا جعلهم يتحملون في سبيل الله ما يفوق طاقة البشر، ويجتمعون على قلب رجل واحد؛ لإعلاء كلمة الدين ونشره في ربوع المعمورة شرقًا وغربًا، ولو علموا أنه مجنون أو مريض -كما يدعي أعداء الدين من المستشرقين وغيرهم- لما آزروه وحالفوه وساروا تحت إمرته وأطاعوه في كل صغيرة وكبيرة، وسألوه المشورة في أدق أمور حياتهم، وتركوا له زمام أمورهم، وساروا في طريقه، واتبعوا هداه، وضحوا بكل غال من أجل نشر دينه الذي دعا إليه.

أما زعم المستشرقين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذ من الديانات السماوية السابقة -وهي اليهودية والنصرانية- وألَّف بين ما جمع منها من معلومات ووضع القرآن، فهذا زعم تكذبه طبيعة الاختلاف الواقع بين هذه الأديان السابقة على الإسلام وبين الإسلام، وهو اختلاف جوهري لا ينكره إلا معاند، وبالمقارنة بين الإسلام وبين تلك الديانات يلحظ المرء الفرق في العقائد الأساسية وفي العبادات والمعاملات. فالإسلام دين الوحدانية: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد﴾. والإسلام يتصور الله متعاليًا على الكون الذي خلقه غير باطن فيه: ﴿فهو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾. يقول «الغزالي»: «مستوى على العرش (أي الله) استواء منزهًا عن المماسة والاستقرار، بائن عن خلقه بصفاته، مقدس عن

التغير والانتقال»[١].

فالله في الإسلام خلق الكون وهو الذي يسيره وينظمه، وهناك عملية خلق مستمرة. وهو الذي ينظم الكون ويسيره. وكل ما يجري فيه بأمره وقدرته، ويعلم كل صغيرة وكبيرة فيه. وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. وما من اثنين إلا وهو ثالثهم، غير أنه ليس مباطن للكون ولا حال فيه؛ بل هو بائن عنه، منزَّه عن الحلول والاتحاد، مفارق له ومتعال عليه. وعلاقة الله بالناس والأشياء في الإسلام تختلف عن الأديان الأخرى. كذلك صفات الله والعبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة، والمعاملات كالزواج والطلاق وتعدد الزوجات والمواريث وغيرها.

أمَّا المسيحية فهي تتصور الله باطن في الكون ممتزج بالحياة: «إني أنا حي فأنتم ستحيون. في ذلك اليوم تعلمون أني أنا وأبي وأنتم فيَّ وأنا فيكم» (إنجيل يوحنا: ١٤، ٢٠، ٢١). فتصور المسيحية لله يتلخص في أنه في لحظة مختارة من الزمان حلَّ اللهوت في الناسوت؛ أي أنَّ الله سبحانه حل في صورة سيدنا عيسى، ونزل الله من السماء إلى الأرض وصار حاضرًا في الطبيعة، وأصبحت حركتها خاضعة لحركته بحلوله فيها فضلًا على أنه حل في الجسد البشري وامتزج بالدم الإنساني ويقولون: إن المسيح ابن الله، وآخرون يقولون: هو الله، وآخرون: إن المسيح ثالث ثلاثة[٢]. بينما الإسلام يقول: إن الله واحد، ليس له زوج ولا ولد: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه بل له ما في السماوات وما

(١) «إحياء علوم الدين» جـ ٤ ص٥٠.

(٢) انظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٢٨٦.

في الأرض كل له قانتون بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾. فالنصارى يزعمون أن عيسى ابن الله، واليهود يزعمون أن عزير ابن الله[١]؛ بينما الإسلام يكذب ذلك كله وينزه الله عن أن يكون له ولد أو بنت، وله ما في السماوات والأرض ومن فيهنَّ، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء. والجميع عبيد له ومِلْك له، فكيف يكون له ولد منهم؛ والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟ كما جاء في القرآن أنه: ﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾. وجاء في القرآن قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا لقد جئتم شيئًا إدًّا﴾. فالإسلام يقرر أن الله هو السيد الأعظم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟ وفي الإسلام أن ما في السماوات والأرض يشهد لله على وحدانيته[٢].

وهذا موضوع يطول شرحه، ويجدر أن يكون موضوعًا لبحث منفرد تعقد فيه مقارنة دقيقة بين ما جاء في الدين الإسلامي وما جاء في الديانات السماوية؛ لتوضيح أوجه الاختلاف الجوهرية في مفهوم الله وعلاقته بالعالم، وما جاء في القرآن من عقائد أخرى وعبادات ومعاملات. ثم يجب ألا نغفل أن الديانات الثلاثة ديانات سماوية، فلا بدَّ أن يكون بينها أوجه شبه في نواحي عديدة، وهذا

(١) انظر: «تفسير القرطبي»، المجلد الأول ص٥٧٩.

(٢) انظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص١٠٦.

ما عَبَّر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «**مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارًا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون، ويقولون: لولا موضع اللبنة**»[1]. ففي هذا الحديث الشريف يشبه النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء والرسل السابقين عليه بأنهم كالبنيان الجميل الذي ينقصه موضع لبنة أو طوبة، فكل مَن ينظر إليه يعجب بحسنه ويقول: لولا اللبنة المفقودة لكان بناء الدار كاملًا وغاية في الحسن. فهو صلى الله عليه وسلم قد بعث متممًا لدين الله مكملًا لمكارم الأخلاق. وهذا يدعونا إلى الحديث عن محمد النبي الصادق الأمين الذي صمد في وجه أعداء دينه بعزمٍ لا يلين، وبإيمان لا يتزعزع، وثقة كاملة بنصر الله، وقد حق وعد الله له، وهذا ما سنوضحه تفصيلًا.

٤ـ محمد الصادق الأمين:

وُلد محمد صلى الله عليه وسلم في مكة في عام ٥٧٠م أو ٥٧١م، والده هو: عبد الله (٥٤٥م) ابن عبد المطلب (٤١٧م) ابن هاشم (٤٦٤م) ابن عبد المناف (٤٣٠م) ابن قصي (٤٠٠م). وأمُّه: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة. وهو من أشراف قريش. مات أبوه قبل مولده وهو لا يزال في بطن أمه، ثم ماتت أمُّه وهو لا يزال طفلًا في السادسة، فكفله جدُّه عبد المطلب، الذي مات في الثمانين من عمره، ومحمد لا يزال في الثامنة، فكفله عمُّه أبو طالب

(١) انظر: «شرح الكرماني» ١٤: ١٣٤، «فتح الباري» لابن حجر ٦: ٤٠٧، و«عمدة القارئ» للعيني ٧: ٥١١، «شرح القسطلاني» ٦: ٢٢، وأخرجه مسلم في «الفضائل»، والبخاري ٢: ١١.

الذي أحاطه بالرعاية والحنان إلى أن شبَّ وكبر(١).

والحقيقة أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم تفيض بها كتب السيرة، وهي قد نالت من عناية الباحثين قديمًا وحديثًا ما لم تناله سيرة أخرى من سير عظماء التاريخ. ومن ثم فإن الخوض في تفاصيل حياة الرسول منذ مولده حتى مماته يُعد تحصيل حاصل، وإنما أود فقط هنا أن أوضح جانبًا خاصًّا من سيرة الرسول وهو ما عُرف عنه من أنه الصادق الأمين؛ لنخلص من ذلك إلى أنه لا يمكن أن يدعي النبوة كذبًا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإني أود أن أظهر مدى صموده في وجه أعداء دينه وقوة إيمانه وثقته بنصر الله له؛ لنستشف من ذلك كله أنه نبي الله، وأنه مبعوث إلى الناس كافة بخاتم رسالات السماء.

ومحمدٌ نشأ يتيمًا في بيئة بدوية في ظل النظام القبلي، القائم على العصبية والجهالة المطبقة، في بلدة غير ذي زرع، يعمل معظم أهلها بالتجارة والرعي. انتشر بينهم شرب الخمر وتفشي فيهم الربا ولعب المسير وحب الشهوات. ولم يكن لهم كبير اهتمام بالعلم؛ غير أنهم نبغوا في الشعر وبرعوا فيه، وعلقوا أشهر قصائدهم حول الكعبة، والقليل منهم كان يعرف القراءة والكتابة. وكان لموقع شبه الجزيرة العربية ولطبيعتها الصحراوية الفضل في أن ظلت بعيدة عن مطامع الغزاة من الفرس الذين كانوا يدينون بالمجوسية، والروم الذين كانوا يدينون بالمسيحية، هاتان القوتان كانتا في أوائل القرن السادس الميلادي تحيطا بشبه الجزيرة العربية، وقد حرصت كل منهما على نشر دينها؛ ومع ذلك ظلت

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» تحقيق/مصطفى السقا والإبياري ج١ ص١٣٠ وما بعدها، وانظر أيضًا: محمد حسنين هيكل: «حياة محمد» ط١٦، ص٨٧.

شبه الجزيرة وكأنها واحة حصينة آمنة من الغرور إلا في بعض أطرافها، ولم تنتشر الدعوة الدينية -مسيحية كانت أو مجوسية- إلا بين القليل من قبائلها[١]؛ فكانت المجوسية منتشرة في إقليم البحرين والمناطق المجاورة للخليج الفارسي. كما انتشرت المسيحية في تغلب وغسان وقضاعة في الشمال، وفي اليمن جنوبًا، وانتشرت اليهودية في بعض القبائل المتفرقة في خبير ووادي القرى ويثرب، أمَّا الوثنية فقد انتشرت على نطاق أوسع، فكانت دين الأغلبية[٢].

وعاش محمد اليتيم في مكة مسقط رأسه. ومن المسلمات التاريخية أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكانت طفولته تختلف عن طفولة أقرانه، كذلك صباه وشبابه، فلم يكن له اهتماماتهم، ولم يأنس لمعتقداتهم، واشتهر بين أهله وعشيرته بـ«الصادق الأمين»، وكانت حياته كلها إنسانية سامية، وقد وهبه الله العقل الراجح والبصيرة النافذة والصبر على فقد الأحباب. لم يركع لصنمٍ منذ طفولته كما كان يفعل أهله وعشيرته الذين جُبلوا على عبادة الأوثان.

كان عمُّه أبو طالب خير الأب؛ أحبه وعامله معاملة الأبناء، وكان قد لمس فيه منذ نعومة أظافره الذكاء والبر وحب الخير والأمانة والصدق فتعلق به، وبادله محمد حبًّا بحبٍّ. وصحبه وهو في الثانية عشرة من عمره في رحلة تجارية إلى بلاد الشام، وهناك التقى بالراهب (بحيرى) الذي رأى فيه أمارات النبوة، وحذَّر أهله من يهود بلاد الشام؛ خوفًا من أن ينالوا منه عندما يعرفوا منه تلك الأمارات.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» تحقيق/مصطفى السقا والإبياري، ج١ ص١٣٠ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق: ج١ ص١٣٥.

وعاد مع عمِّه إلى مكة فتحمل أعباء الحياة منذ صغره، وعمل برعي الأغنام مما أتاح له فرصة للتفكير والتأمل؛ فكان ينظر إلى ما حوله بانتباه ويقظة وبعين فاحصة بصيرة وقلب مستنير، وعقل متفتح. فكان يتطلع إلى السماء ويشعر أن هذا الكون العظيم لا بد أن يكون وراءه إله قدير أوجده ونظمه على هذا النحو، وهو الذي يدبر أموره ويسيره. وسخر من الأوثان ومن عبادها الذين اعتقدوا أنها تنفعهم أو تضرهم وهي من صنع أيديهم.

وحدث أن قريشًا أرادت إعادة بناء الكعبة فهدمتها، وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريش على رقابها، وذكر عن معمر عن الزهري قال: «حتى إذا بنوها وبلغوا موضع الركن، اختصمت قريش في الركن (أي اختلفت القبائل على رفعه لوضعه في مكانه) حتى شجر بينهم، فقالوا: تعالوا نحكم أول من يطلع علينا من هذه السكة، فاطلع عليهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو غلام عليه وشاح ونمرة، فحكموه، فأمر بالركن فوضع في ثوبٍ، ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن فكان هو يضعه»[(١)]. وهو تصرف منه يدل على الحكمة وحسن التصرف.

وعندما شبَّ عمل بالتجارة، وكانت السيدة خديجة بنت خويلد من أثرياء مكة قد سمعتْ عن شدة أمانته وصدق قوله، فأرسلت في طلبه وأوكلت إليه أموالها ليتاجر لها ويتولى أمور إدارتها، فقبل وسافر بتجارتها إلى الشام، وعاد لها بالأرباح الوفيرة؛ فعجبت من شدة أمانته، وعظمت تجارتها على يديه،

(١) انظر: القرطبي: تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» ص٦١٦، وانظر أيضًا: «سيرة ابن هشام» ج٩.

وتضاعفت أموالها، فأعجبت به وبحسن خلقه، وعرضتْ عليه الزواج، وكانت في الأربعين من عمرها، وكان هو في العشرين.

وكان محبوبًا من قومه وموضع تقدير وثقة من الجميع، ولُقب بينهم بـ«الصادق الأمين». وقبل البعثة بخمس سنوات كان يذهب إلى غار حراء يمضي به شهر رمضان من كل عام، متحنثًا متفكرًا متأملًا في خالق الكون، مما هيأه روحيًّا لتلقي رسالة السماء، حتى أن كانت ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، أنزل الله عليه جبريل بالرسالة يتلو عليه أول ما أوحي إليه من خير السماء: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ...﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «أنزل على رسول الله وهو ابن أربعين، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أُمر بالهجرة إلى المدينة، فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين، ثم توفي صلى الله عليه وسلم عن ثلاث وستين سنة»(١).

وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنوات حياته بعد نزول الوحي عليه في جهاد مع الكفار بعزمٍ لا يلين، وتمسك الواثق وإصراره على صحة وصدق ما يدعو إليه، المؤمن بنصر الله له ولدينه؛ مع ضعفه وقلة حيلته، وعناد أعداء دينه وكثرة عددهم وعُدتهم.

وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها: أنَّ أول ما بُدئ به رسول الله من

(١) انظر: «شرح الكرماني» ١٥: ٤٦، و«فتح الباري» لابن حجر ٧: ١٢٥، و«عمدة القارئ» للعيني ٥٤٩٨، و«شرح القسطلاني» ٦: ١٨٤.

الوحي الرؤيا الصالحة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء؛ فكان يخلو في غار حراء يتحنث فيه(١).

وعندما نزل عليه الوحي ذهب إلى زوجه السيدة خديجة وهو يرتعد من هَوْل ما حدث له في غار حراء مع جبريل الذي رآه لأول مرة. وطلب منها أن تدثره في فراشه، وقصَّ عليها وهو يرتعد ما حدث له من أمر الوحي، ثم قال لها: **«لقد خشيت على نفسي»**. فقالت له خديجة: «كلا، أبشرْ، فوالله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق القول، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقْري الضيف، وتعين على نوائب الدهر»(٢).

فالرسول لم يخف تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه أنه لم يكذب؛ وإنما خشي على نفسه أن يكون قد أصابه عارض سوء. غير أن السيدة خديجة طمأنته على نفسه وأوضحتْ له قدره، وجميل خصاله، وأن الله لا يخذله أبدًا. وذهبتْ معه إلى «وَرَقَة بن نَوْفَل» -وكان من القلة الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر في مكة- فقصَّ عليه الرسول ما حدث له من أمر الوحي؛ فبشَّره بأنه الناموس الأكبر الذي نزل على موسى، وقال له: ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **«أَوَ مُخْرجي هم؟»**. فقال: نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإِنْ يدركني يومك حيًّا أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم توفي بعدها «ورقة»(٣).

---

(١) ذكره البخاي ١: ١٦، صحيح مسلم ١: ٩٦.

(٢) انظر: «صحيح البخاري» ١: ١٨، ٢٣، وانظر أيضًا: «صحيح مسلم» ١: ٩٧.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» ص١٤٥.

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى دينه الجديد سرًّا في أول الأمر؛ فكانت زوجه خديجة أول مَن آمن به من النساء بحكم معرفتها القريبة له ووقوفها على مدى صدقه وأمانته في القول والفعل؛ فهي لم تجرب عليه الكذب، وهي التي أعجبت بما يتمتع به من شدة الصدق في أقواله، وكانت وهي أقرب الناس إليه لقادرة على كشف كذبه فيما يدعي لو لم يكن صادقًا، خاصة بعد أن تعرض من جانب كفار قريش لألوان الأذى التي لا تُحتمل، فلو داخلها الشكُّ ولو للحظة في صدق دعوته لنصحته أن يتراجع عنها ليعيشا في هدوء وأمان واستقرار، خاصة وهو لا يبغي من وراء تلك الدعوة مالًا ولا سلطانًا؛ بل إنها عرَّضته للتنكيل والعذاب، ومحاربة الأهل له.

وإني أرى في إيمان السيدة خديجة بدعوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ووقوفها معه تشد من أزره وتناصره، دليل من الأدلة الناصعة على صدق نبوته.

كما كان «أبو بكر الصديق» أول مَن آمن به من الرجال. وكان «عليٌّ» ابن عمه أبي طالب أول من آمن به من الفتية. وكان «زيد» مولى النبي صلى الله عليه وسلم أول من آمن من الموالي. ثم آمن به السابقون الأولون: عثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، ومجموعة كبيرة من الموالي كعمَّار بن ياسر وآل بيته، وبلال بن رباح وغيرهم.

وعندما أمره الله أن يجهر بالدعوة حينما نزل عليه جبريل بقوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن

عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾، فوقف على جبل الصفا بظاهر مكة ونادى: «**لو أخبرتكم أنَّ خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**». قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، لا أملك لكم من الدنيا منعه ومن الآخرة رحمة إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله**»(١). فما كان من أبي لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن قال: «تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟!». فأنزل الله فيه قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾.

ثم جاء أمر الله لرسوله بأن يدعو إلى دين الإسلام الناس كافة حينما أنزل عليه قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾، فبدأ الرسول يدعو الناس من كل الطوائف السادة والعبيد من أهل مكة وغيرها من أهل البلدان الأخرى الذين يفدون إلى مكة للحج.

ولم يكن الأمر هينًا أو يسيرًا؛ بل إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم لقي من أهله معارضة شديدة لهذا الدين الجديد، وحاربوه للقضاء عليه؛ غير أنه لم يستسلم لشدة إيمانه بصدق دعوته وثقته الكاملة في نصر الله له.

---

(١) انظر: «شرح الكرماني» ١٨: ٣٤، و«فتح الباري» ٨: ٣٨٥، و«عمدة القارئ» للعيني ٩: ٨٠، و«شرح القسطلاني» ٧: ٢٧٩، وأخرجه أيضًا في المناقب.

openkan.com

٥ـ صمود النبيِّ صلى الله عليه وسلم وثقته من نصر الله:

أغضب أشراف مكة أنَّ الإسلام يسوِّي بين السادة والعبيد، لا فضل بينهما إلا بالتقوى، وعزَّ عليهم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الدعوة قائدهم وزعيمهم، وفيهم مَن هو أكبر منه سنًّا وأكثر منه جاهًا، وأرفع مكانة، كما عز عليهم مخالفة دين الآباء الذي ألفوه والذي كان مصدر رزق لبعضهم من تجار الأصنام، وقد قال الله تعالى في تعصبهم لدين الآباء دون تفكير أو تعقل: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئًا ولا يهتدون﴾.

وهم لا يدركون لشدة جهلهم أن الله قد اصطفاه وطهره وخصه برسالته؛ لما متعه به تعالى من سمات خلقية كريمة، وقدرة عظيمة على الصمود والجلد لا نظير لها، وصبر على الشدائد، وبراعة في معاملة الناس على اختلافهم، وقدرة على كسب ودهم. وتلك سمات الأنبياء والرسل، وليس الغني والسلطان.

وكان أبو طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم يصد عنه بطش كفار مكة، ويدافع عنه ويحميه، وظل على دينه. ولم يعتنق الإسلام فكان حلقة الوصل بين ابن أخيه وكفار قريش الذين كانوا يأنسون له لاحتفاظه بدين الآباء والأجداد. وذهب إليهم رهط من أشرافهم، يطلب منه أن يكف عنهم ابن أخيه الذي سبَّ آلهتهم، وعاب دينهم، وسوَّى بينهم وبين عبيدهم، فإن لم يرجع عما يدعوهم إليه، فليخلِّ بينه وبينهم. وهم يظنون حينذاك أنهم بقادرين على الفتك به والنيل منه. فذهب أبو طالب إلى ابن أخيه وطلب منه أن يترك هذا الدين الذي أثار عليه قومه، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن

قال قول الواثق الصادق الذي تبين أنوار الحقيقة وتيقن أنه نبي الله: «**والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظْهره الله أو أهلك دونه**»(١). وعندما وجد أبو طالب من ابن أخيه هذا الإصرار وهذا الإيمان العميق الصادق برسالته، قال له: «اذهب يابن أخي فقلْ ما أحببت، فواللهِ لا أسلمك لشيء أبدًا»(٢).

وكان نتيجة لذلك أن أمعن الكفار في عذاب المسلمين والكيد لهم ولرسولهم، وخاصة الفقراء منهم.

وقد روى عروة بن الزبير: أن عبد الله بن عمرو بن العاص طلب منه أن يخبره بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «بينا النبي

---

(١) «سيرة ابن هشام» ج١ ص١٣٢.

(٢) روى المسيب بن أبي وهب المخزومي: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة: «يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد الملطب؟!». فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلَّمهم به: «على ملة عبد المطلب». فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنه**». فنزلت الآية: {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم}، ونزلت: {إنك لا تهدي من أحببت}. وعن ابن عباس بن عبد المطلب: قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أغنيت عن عمك (أي: يعني أي شيء دفعته عنه ونفعته به؟) فواللهِ كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «**هو في ضحضاح من نار** (أي في النار) **ولكن ضعف عنه العذاب، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**» (أي: لولا شفاعتي لكان في أقصى قصرها). انظر: «الألف المختارة من صحيح البخاري» ج٢ ص: ٧٢، ٧٣، وانظر: «سيرة ابن هشام» ج١ ص١٣١.

صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط[١]، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ﴿أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله﴾[٢] الآية.

كما روى خباب بن الأرت قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو متحمر وجهه فقال: **«لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»**[٣].

من تلك الأحاديث وغيرها يتضح لنا مدى تمسك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بدعوته، ولم يكن له أن يصمد هو وصحبه في وجه أعداء الدين ويتحمل ما تعرض له من ألوان الأذى، إلا إذا كان على حقٍّ وعلى ثقةٍ من أن مَن بعثه بالحق لن يتخلى عنه حتى يتمَّ نشر الدين الإسلامي؛ قال تعالى: ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾.

---

(١) أحد الكفار، وقد قتل كافرًا بعد موقعه «بدر».

(٢) «شرح الكرماني» ١٥: ٨، «فتح الباري»٥٦ ٧: ١٢٨، «عمدة القارئ» للعيني ٨: ٥٨، «شرح القسطلاني» ٦: ١٨٦، وأخرجه أيضًا في باب فضل أبي بكر، كتاب المناقب.

(٣) «شرح الكرماني» ١٥: ٧٧، «فتح الباري» ٧: ١٢٦، «عمدة القارئ» للعيني ٨: ٥٥، «شرح القسطلاني» ٦: ١٨٤. وأخرجه أيضًا في المناقب وفي علامات النبوة، وأبو داود في (الجهاد)، والنسائي في (العلم والزينة).

وما تحمل أتباعه من المسلمين ما تحملوه من اضطهاد الكفار لهم وتعذيبهم إياهم، إلا لأنهم تيقنوا من صدق نبوته وإخلاص دعوته، فكانت شدة إيمانهم برسالته دافعًا وحافزًا لهم على التضحية بأرواحهم وأولادهم وأموالهم في سبيل نصرة دينهم.

وعندما حارتْ قريش في أمر محمد ووجدت منه ذلك التصميم العجيب على المضي في نشر دعوته، حاولتْ أن تغريه بالمال والمناصب، فأرسلت إليه «عتبة بن ربيعة» يقول له: «يابن أخي، إنك منا حيث قد علمتَ من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، فاسمعْ مني أعرض عليك أمورًا تقبل بعضها؛ إن كنت تريد بهذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سَوَّدناك علينا، فلا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد مُلْكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئًا (جمع رؤيا) تراها لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ». فلما فرغ من قوله تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه سورة السجدة: ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه. وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة عاد وثمود﴾، فوضع «عتبة» يده على جنبه كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع

محمدًا وشأنه[١].

وما زاده عرض قريش عليه إلا إصرارا وتمسكًا بدينه الذي يعلم أنه الحق من ربه؛ فهو لا يبغي مالًا وهو الزاهد الراضي بما أنعم عليه من نعمة النبوة؛ قال تعالى: ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، كما عرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنةً ويعبدون هم إلهه سنةً، فرفض ونزل عليه في ذلك قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾.

وعندما اشتد إذاء الكفار له ولأتباعه أمرهم بالهجرة إلى الحبشة؛ حيث بها مَلِكٌ عادل لا يُظْلَم عنده أحدٌ، وهو «النجاشي». وهاجر المسلمون إليها، وعاشوا في كنفه، فأحسن استقبالهم وضيافتهم. غير أنَّ الكفار ما لبثوا أن بعثوا وفدًا منهم على رأسه عمرو بن العاص محملًا بالهدايا؛ ليوغروا صدر «النجاشي» ضدهم فيأمر بترحيلهم إلى بلادهم. ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل، حينما قرأ سيدنا جعفر بن أبي طالب بعض آيات من «سورة مريم» مما أبكى «النجاشي» وعلم أن منبع هذا القرآن ومنبع الإنجيل واحد؛ فرجع وفد قريش خائبًا[٢].

وظلت قريش على عدائها للإسلام تكيل للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه ألوان التحدي والاضطهاد، وتلاحقهم أينما كانوا، وصمد النبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه صمود الجبابرة الأبطال، وهم على ثقة كاملة من

---

(١) ابن إسحاق: «المغازي» ج١ ص١٨٥، وانظر: «تفسير ابن كثير» ج٤ ص٩ وما بعدها.
(٢) «سيرة ابن هشام» ج١ ص: ٣٥٩، ٣٦٠.

صدق نبيهم ونصر الله له. وما لبث أن دخل في الإسلام إلى جانب الإماء والفقراء كبار رجالات قريش؛ فأسلم حمزةُ عمُّ الرسول أولًا، ثم عُمر بن الخطاب بعده[١]، وهنا علمت قريش أنَّ الإسلام يزداد قوة كل يوم، وأنه بدأ يجذب الأقوياء الأشداء، فقامت قريش بمحاولة جديدة للقضاء على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فذهبوا إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يعطوه «عمارة بن الوليد بن المغيرة» ويأخذوا محمدًا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه؛ فسخر منهم أبو طالب قائلًا: «بئس ما تساومونني! أتعطوني ابنكم أَغْذُوه لكم؛ وأعطيكم ابني تقتلونه»[٢].

وبحثت قريش عن وسيلة أخرى لإيقاف زحف الإسلام الذي كثر أتباعه وذاع خبره، فاتفقوا على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومقاطعة أتباعه ومقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب، وكتبوا صحيفة بذلك، وعلقوها في جوف الكعبة؛ توثيقًا لما أجمعوا عليه، تضمنت ألا يزاوجوهم ولا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم، ولا يزوروا مرضاهم، ولا يشيعوا موتاهم. ودامت تلك المقاطعة زهاء ثلاث سنين تكبد فيها المسلمون ألوان الحرمان والجوع. غير أنهم ظلوا ورسولهم على صمودهم، وجَمَّلهم ربهم بالصبر. وكانوا قد ألزموهم العيش في شعب بين جبلين حددوا فيه إقامتهم.

وكان المسلمون يتمنون انتهاء هذه المقاطعة، فوعدهم الله بأن العاقبة لهم،

---

(١) «سيرة ابن هشام» ج١ ص٢١٦.

(٢) المرجع السابق: ص١١٩. وانظر أيضًا: الطبري: «تاريخ الملوك» ج٢ ص٢١، والبنهاني في «الأنوار المحمدية» ص٤٢.

فأنزل على رسوله قوله تعالى: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾، وقوله تعالى: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾. أمَّا الكفار فكانوا يسخرون من وعد الله لنبيه بالنصر، وقد قال الله عنهم: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتًا أو نهارًا ماذا يستعجل منه المجرمون ثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾. حتى إن شاء الله فأخذت الحمية هشام بن عمرو، فذهب إلى زهير بن أبي أمية فقال له: أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟! فوافقه على إنهاء هذا الحصار بعد أن تجمع معهم نفر من قريش، فذهبوا إليهم وطلبوا منهم العودة إلى ديارهم. وعندما أحضروا الوثيقة التي أودعوها جوف الكعبة والتي دونوا عليها ميثاق المقاطعة، وجدوا أن القَرَضَة قد أكلتها إلا الجزء اليسير الذي كُتب عليه: «باسمك اللّهم».

وفي عامٍ واحدٍ أطلق عليه الرسول صلى الله عليه وسلم «عام الحزن» مات عمُّه أبو طالب وزوجه خديجة، وكانا يمثلان سندًا قويًّا للرسول صلى الله عليه وسلم، فتزعم العداء له أبو لهب والحكم بن العاصي وعقبة بن أبي معيط؛ فكانوا يقطنون بجواره مما أتاح لهم فرصة أكبر لإذائه؛ فكانوا يلقون عليه القاذورات وقت الصلاة، وكانت زوجة أبي لهب تضع له الشوك أمام منزله حتى إذا خرج لصلاة الفجر يؤذيه.

والرسول صلى الله عليه وسلم مع كل هذا لم يشعر بإحباط ولم يداخله اليأس والقنوط؛ وإنما بقي على صموده وثقته من نصر الله له، وبأنه لن يخذله

فما كان منه إلا أن ناجى ربه بقوله: «**ربي إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي**»(١).

وفي وسط تلك الظروف القاسية التي كان يعاني منها النبي صلى الله عليه وسلم أراد الله أن يسري عنه، فكان «الإسراء والمعراج» الذي رأى فيه من آيات ربه الكبرى، فرأى وسمع ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر؛ قال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾.

وكان لحادث الإسراء والمعراج دوي هائل في مكة، وظن الكفار أنهم وجدوا فرصتهم للطعن في صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتحداه الكفار بأن يصف لهم بيت المقدس إذا كان قد رآه حقًّا؛ وقد روى جابر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**لما كذبتني قريش قمت في الحجر(٢)، فجلى الله لي بيت المقدس، فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**»(٣)، فوصف لهم بيت المقدس وصفًا دقيقًا، وهو لم يشاهده قبل الإسراء، وبشَّرهم بوصول قافلة تجارية لهم كان قد رآها في طريقها إلى مكة وهو يسري به، فوصلت القافلة في الوقت الذي حدده لوصولها، فكان ذلك دليلًا على صدقه. وقال تعالى في الرد على عدم تصديقهم له صلى الله عليه وسلم في حادث الإسراء والمعراج: ﴿والنجم وما هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا

---

(١) «سيرة ابن هشام» ج٢ ص٢٨٥، ابن القيم: «زاد المعاد» ص٤٦.

(٢) حِجر إبراهيم بجوار الكعبة المشرفة.

(٣) أخرجه «البخاري» ج٧: ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، و«صحيح مسلم» ص١٠٨، وابن حبان رقم ٥٤.

فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الحجاج إلى دينه في موسم الحج ويقول لهم: «**مَن رجل يحملني إلى قومه فيمنعني** (أي يمنع عني الأذى) **حتى أبلغ رسالة ربي؛ فإنَّ قريشًا قد منعوني أن أُبلِّغ رسالة الله**»(١). فلم يستجيبوا له، وقال له رجل من بني عامر بن صعصعة حين دعاهم إلى الله: «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟». فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «**الأمرُ لله يضعه حيث يشاء**»(٢).

ولو كان الرسول صلى الله عليه وسلم مدعيًا لوافقهم على هذا الاقتراح الذي يضمن له نشر دينه وبسط نفوذه طوال حياته، ثم بعد مماته لا يهمه الأمر خاصة وأنه كان يعاني كما عرفنا من عذاب كفار قريش وشدة عدائهم له.

وأشاعتْ عنه الكفار أنه شاعر، وأنه ساحر، وأنه مجنون. غير أنه مضى في طريقه محاولًا نشر الدعوة، وإظهار الحق، وإحياء القلوب، وأن ينشئ ممن استهلكتهم الخرافة أجيالًا ناضرة متعلمة مؤمنة، تكسر صلب الباطل، وهو في كل ذلك لا يبغي لنفسه مجدًّا ولا منصبًا، ولا يطمع في مال أو عرض من

(١) انظر: المقريزي: «إمتاع الأسماع» ج١ ص٣١.
(٢) الطبري: «تاريخ الأمم والملوك» ج٢ ص: ٨٣، ٨٤.

أعراض الدنيا؛ فقد كان زاهدًا مكافحًا؛ قال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان زاهدًا متقشفًا لا ينظر إلى عرض الحياة الدنيا كما سبق أن ذكرنا، وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آلُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة من طعام بر (أي قمح) ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قُبض»(١). أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته لم ينالوا من متاع الحياة الدنيا شيء؛ بل إنهم لم يشبعوا ثلاث ليالٍ متتابعة من الخبز. وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد عانى في سبيل نشر الدعوة، ولم يكن يبغي من وراء ذلك منفعة مادية أو متعة دنيوية، وإنما هو مُبلِّغ عن ربه. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما أكل محمد صلى الله عليه وسلم أكلتين في اليوم إلا كان أحدهما تمر»(٢)، وقالت أيضًا: «كان فراش الرسول صلى الله عليه وسلم من أدم (أي جلد) وحشوة ليف»(٣).

وظل الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكًا بدعوته، فكان في موسم الحج من كل عام يداوم على تبليغ الحجيج بها ويدعوهم إلى الإسلام. وقد استجاب

---

(١) انظر: «شرح الكرماني» ٢٢: ٢٢٠، «فتح الباري» لابن حجر ١١: ٢٤٩، «عمدة القارئ» ١٠: ٦١١، «شرح القسطلاني» ٩: ٢٦٤، وأخرجه أيضًا في الأطعمة.

(٢) «شرح الكرماني» ٢٢: ٢٢٠، «فتح الباري» ١١: ٢٥٠، «عمدة القارئ» للعيني ١٠: ٦١١، «شرح القسطلاني» ٩: ٢٦٤، كما أخرجه مسلم في صحيحه، باب الزهد والرقائق.

(٣) «شرح الكرماني» ٢٢: ٢٢٠، «فتح الباري» ١١: ٢٥٠، «عمدة القارئ» للعيني ١٠: ٦١١، «شرح القسطلاني» ٩: ٢٦٤، وأخرجه مسلم والترمذي في كتاب اللباس.

له أهل يثرب من الأوس والخزرج فدخلوا في دين الله، وقد كانوا يسمعون من يهود بني النضير في يثرب ويهود بني قريظة أن نبيًّا سيبعث.

وقد ذكر الله أن محمدًا صلى الله عليه وسلم مشار إليه في الكتب السماوية السابقة؛ غير أنه بعد ظهوره أنكره أصحاب هذه الديانات، ولم يؤمنوا به، فقال تعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾. وشاء الله أن تسطع شمس الحقيقة وتبهر بأضوائها عقول وقلوب أصحاب البصائر النافذة، فحق قول الله تعالى: ﴿أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾، فنصر الله الحق وأزهق الباطل. وقد جرت سُنَّة الله ألا يصح إلا الصحيح مهما طال الزمن، ومهما حاول أعداء الحق طمسه.

وحق وعد الله للذين آمنوا؛ ففي السنة الثانية عشرة للبعثة تمت البيعة الأولى لأهل المدن. وكان عدد من حضر اثني عشر رجلًا وامرأة. ثم ما لبث أن أعتنق أغلب أهل يثرب الإسلام[1]. وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب «مصعب بن عمير» يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم في الصلاة، ويكون داعية بينهم للدين الجديد؛ فدخل في الإسلام قادتهم ورؤسائهم.

وفي السنة الثالثة عشر للبعثة تمت «بيعة العقبة الثانية» بين الرسول وثلاثة وسبعين شخصًا من يثرب، وطلبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم الهجرة إليهم وعاهدوه في حضور عمه العباس على مساندته في نشر دعوته، وأن يقدموا له

(١) انظر: ابن هشام: سيرة النبي، ج١ ص٢٧٥.

كل ما في وسعهم من عون ومال، ووعدوه بالوقوف إلى جانبه في كل الأحوال[١].

وأخذ أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجرون إلى يثرب سرًّا، تاركين في مكة أهلهم وزوجاتهم وأولادهم وأموالهم، ومضحين في سبيل نصرة دين الإسلام بكل ما يملكون ابتغاء مرضاة الله.

وشعر الكفار بهجرة المسلمين إلى يثرب فأزعجهم ذلك وخشوا أن يصبح المسلمون قوة تغير على مقدساتهم. كما أن وجود المسلمين في المدينة يمثل عقبة في طريق تجارتهم إلى الشام، فكان لا بد من تحرك سريع من جانب قريش لوقف الهجرة وبتر هذا الدين من جذوره بقتل محمدٍ صلى الله عليه وسلم والقضاء على الدعوة نهائيًّا، فأجمعوا على أن يختاروا من كل قبيلة شابًّا جلدًا وأن يشتركوا في قتله حتى يتفرق دمُه بين القبائل، فلا يجد أهلُه بُدًّا من قبول الدية[٢].

وأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على نية أعداء دينه، فأمره الله بالهجرة إلى يثرب، فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من ابن عمه «علي بن أبي طالب» أن ينام في فراشه تلك الليلة كي يضلل الكفار، وصحبه «أبو بكر الصديق» في رحلته؛ تلك الرحلة التي لا شك أنها من البراهين الساطعة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق دعوته. وأوحى الله إليه هذا الدعاء: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي

(١) المرجع السابق: ج٢ ص٣٨.

(٢) ابن هشام: سيرة النبي، ج١ ص٥٩١، وانظر أيضًا: ابن القيم: «زاد المعاد» ج٢ ص٥٧.

مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾[١]. وبينما كان وفد قريش يتربص بالنبي صلى الله عليه وسلم ويحيطون بمنزله لمحاصرته وقتله، انسل الرسول صلى الله عليه وسلم من بيته إلى دار أبي بكر دون أن يلحظوا خروجه؛ فقد طمس الله على أبصارهم. وتلك معجزة عظيمة من معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ودليل على إكرام الله له، فأخذتهم غفوة وغلبهم النوم، فما شعروا بخروجه وخذلهم الله، وخرج الرسول وصحبه إلى غار ثور، وعندما اكتشف الكفار أن محمدًا ليس بالدار وأن من ينام في فراشه هو «علي بن أبي طالب» انطلقوا يبحثون عنه في كل مهرب، وينقبون جبال مكة وكهوفها حتى وصلوا إلى غار ثور، وعندما سمع أبو بكر أقدام المطاردين، خفق قلبه خوفًا، وهمس في أُذن الرسول صلى الله عليه وسلم قائلًا: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا». فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: **«يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟!»**[٢].

وكان من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم أن جعل الله حشرة العنكبوت تنسج خيوطها بغزارة على باب الغار حتى سُدَّ بها، فما كان من الكفار إلا أن انصرفوا عن البحث في داخل الغار؛ فقد وجدوا عليه من خيوط العنكبوت ما يستحيل وجوده إذا وطأ أيُّ إنسان الغار[٣].

وقد وردتْ حادثة الغار في القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ

---

(١) قال ابن عباس: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أمره بالهجرة وأنزلت عليه هذه الآية». أخرج حديث ابن عباس «الترمذي» ٤: ١٣٧، و«الحاكم» ٣: ٣، و«البيهقي» ٩: ٩، و«أحمد» رقم ١٩٤٨، وهي آية ٨٠ من سورة الإسراء.

(٢) أخرجه «البخاري» ٧: ٢٠٧، و«مسلم» ٧: ١٠٩ من حديث أبي بكر الصديق.

(٣) ابن كثير: «البداية والنهاية» ج٣ ص١٨، وانظر أيضًا: الحافظ: «الفتح» ج٧ ص١٨٨.

نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ومرت ثلاث ليالٍ على وجودهما في الغار حتى فتر حماسُ الكفار، واصلا بعدها رحلتهما إلى يثرب. وكانت قريش قد رصدت مائتين من الإبل لمن يحضرهما أحياءً أو أمواتًا، وهي جائزة مغرية وقيمة في ذلك الوقت لقومٍ يقطنون الصحراء، فما كان من «سُراقة بن مالك» إلا أن أخذ فرسه واقتفى أثرهما، فما أن اقترب منهما حتى عثرتْ به فرسُه ووقع على الأرض، فنهض وكرر المحاولة للاقتراب منهما؛ غير أن فرسه قد تعثرتْ مرة أخرى، فزجرها فانطلقت حتى قرب من الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه. وكان أبو بكر كثير الالتفات خلفه حتى يتبين مَن يتعقبهما، فلما دنا عرف أنه سُراقة، فأخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أن أتم كلامه حتى هوتْ الفرسُ مرة ثالثة ملقية «سراقة» إلى الأرض، فنهض وهو في حالة من الرهبة والخوف من الله ورسوله، مناديًا الرسول صلى الله عليه وسلم طالبًا منه الأمان، وأدرك أنَّ الله حقٌّ وأن محمدًا رسولُ الله، فاعتذر له وأسلمَ وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وانصرف عائدًا. وعندما وجد الكفار جادين في البحث عن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ يُضللهم[1].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم طوال الرحلة على ثقةٍ كاملةٍ من نصر

(١) انظر قصة سراقة في «صحيح مسلم» ج٨ ص٢٣٦، ٢٣٧، و«البخاري» ٧: ٢٠٠ من حديث أنس ٣: ١٢ و«مسند أحمد».

الله له، وعلى ثقة كاملة من رعاية الله له ولصاحبه؛ على الرغم من المخاطر العديدة التي صادفتهما.

ورغم أن قريشًا أهدرت دمه، ورصدت جائزة لمن يعثر عليه أو يقتله حتى بلغا يثرب بسلامٍ، فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب، فاستقرَّ بها وأسس بها أولَّ مسجد في الإسلام، وكوَّن أول حكومة إسلامية كانت نواة للدولة الإسلامية الكبرى بعد ذلك. ولم يُفلح أحدٌ في تثنيته عن عزمه أو تعويق مسيرته أو إغرائه بمالٍ أو جاه، أو ترضيته برغبة، أو ردعه برهبه، فحكم بدستور الله في «يثرب» التي سميت بعد أن هاجر إليها «بالمدينة المنورة» فصنع عالمًا ربانيًّا موحد القلب والفكر والشعور والعمل، يسوده نظام واحد، وتسري فيه نغمة واحدة، يجتمع أفراده على قلب رجلٍ واحد؛ بعد أن كانوا متحاربين يعادي بعضهم بعضًا، فأصبحوا متحابين متحدين في ظل المساواة والعدل والديمقراطية الحقة، لا فرق بين غني وفقير، ولا قوي وضعيف، ولا سيد ولا مَسُود، ولا عربي ولا عجمي إلا بالتقوى، فالكل معتصم بحبل الله بلا تفرقة بعد أن أَلَّف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الإسلام إخوانًا، بعد أن كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها؛ نار الجهل والتخلف والتطاحن والاستبداد والاستعباد والوثنية والتفرقة العنصرية والقهر.

وكان منهج الإسلام سديدًا متمشيًا مع فطرة الإنسان بجمعه بين المادة والروح والعقل وملائمته بينهم ملائمة دقيقة، فلم تطغَ المادة على الروح، فهذه هي الحيوانية بعينها، ولم تطغَ الروح على المادة بشكل ينفر الإنسان بتضييق الخناق على احتياجاته المادية. واحترم الإسلام العقلَ ودعا إلى إعماله وإلى التأمل والنظر العقلي في كل ما يحيط بالإنسان من الموجودات في السماوات

والأرض وما بينهما؛ ليستنتج العقل أن هذا كله لم يوجد بالصدفة، وإنما هو من صنع الله الواحد القهار.

فكان الإسلام هو فجر الحضارة الذي انبعث من الجزيرة العربية ليشرق على العالم في عصور الظلام؛ فأيقظ البشرية من سُبات عميق وأنار لها طريق الرشاد.

وما لبث الإسلام أن انتشر في شبه الجزيرة العربية، ثم بعد ذلك امتد إلى أنحاء العالم شرقًا وغربًا على يد الخلفاء الراشدين بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي صدق تنبؤه بفتح الشام والعراق ومصر.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله بالمنهج الإسلامي القائم على الحجة البالغة والمنطق السليم، وأرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الدخول في الإسلام. ويروي «ابن جرير الطبري» قصة بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم لأتباعه لينشروا دعوته في أرجاء المعمورة قائلًا: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات غداة فقال: **«إني قد بُعثت رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا كاختلاف الحواريين على عيسى ابن مريم»**. قالوا: يا رسول الله، وكيف كان اختلافهم؟ قال: **«دعا إلى مثل ما دعوتكم إليه، فأما من قرب به فأحب وسلم، وأما من بعد به فكره وأبى، فشكا ذلك منهم عيسى إلى الله عز وجل؛ فأصبحوا من ليلتهم تلك وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين بعث إليهم، قال عيسى: هذا أمر قد عزم الله لكم عليه فامضوا»**[1].

(١) انظر: محمد سلمان: «حدث الأحداث في الإسلام الإقبال على ترجمة القرآن» ص١١١.

فهذه قصة صريحة ينبِّه فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى عاقبة مَن كان قبلهم، فلا يختلفوا وإلا تبلبلت ألسنتهم. وقد كتب الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته إلى ملوك العالم باللغة العربية، وختم كتابه بخاتمه النبوي[١].

وقد حدد الإمام «محمد متولي الشعراوي»[٢] جملة من الخصائص العامة التي يفترض أنها تتوفر في المنهج الذي يقود البشر منها:

- أن يكون مستوعبًا لكل قضايا الحياة.

- وألا يتعارض مع حقائق الكون المادية التي سوف تنتهي إليها العقول.

- وأن تكون شعائره التي تأخذ الإنسان من حركة حياته إلى حركة خاصة بربه بسيطة لا تستوعب كل وقته.

- وأن يوثق في هذا المنهج في أنه صادر عن الله بدون دخول للبشرية فيه.

وتلك الشروط جميعها تتوفر في المنهج الإسلامي، وهو ما نحاول إثباته في هذا البحث بعد أن نقف ما جاء بالقرآن من آيات تحدثنا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العرب مثل صاحب اليمامة هوذة بن علي، وصاحب البحرين المنذر بن ساوي، وصاحبا عمان حيفر وعبادة ابني جلندا، وصاحب دمشق المنذر النعماني، وصاحب مصر جريج بن متى المقوقس، وملك الحبشة أصخم النجاشي، وملك الروم هرقل (قيصر)، وملك كسرى. انظر: محمد سلمان: «حدث الأحداث في الإسلام الإقبال على ترجمة القرآن» ص١١١.

(٢) الشيخ محمد متولي الشعرواي: «هذا هو الإسلام» ص٢٣.

٦ـ محمدٌ صلى الله عليه وسلم كما حدَّثنا عنه القرآنُ الكريمُ:

محمدٌ النبيُّ الأُميُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافةً يدعوهم إلى توحيده وعبادته؛ قال تعالى: ﴿قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله وسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾.

وهو يحذرهم من عقاب الله ويبشرهم بثوابه؛ قال تعالى: ﴿ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير﴾، ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا﴾.

وقد أنزل الله عليه كتابه بالحق ليحكم به بين الناس، ويحق الحق ويبطل الباطل؛ قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا واستغفر الله إن الله كان عفوًّا رحيمًا﴾، ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾.

وهو شاهد على أنَّ الله بلغ عباده آخر رسالات السماء، وداعيهم إليها بإذن الله، وهو النور الذي ينير لهم طريق الهداية: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلًا كبيرًا﴾.

والله كفيل بأن يعصمه من أعداء دينه ويحميه، وهو عليه أن يبلغ الرسالة بأمانة كاملة دون أن يخشى خطرهم: ﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾.

وإن هذا القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليبين للناس ما

اختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات، وهو هدى إلى الحق ورحمة للمؤمنين: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. والقرآن بيانٌ ورحمةٌ لكل الناس: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

ومحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء جميعًا: ﴿وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾.

وهو الشهيد على أُمة الإسلام يوم القيامة وشفيعها: ﴿يوم نبعث في كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدًا على هؤلاء﴾.

وهو بشر يموت وتبقى رسالته، ومن يرتد عن دينه بعد موته فلا يضر الله شيئًا: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين﴾.

والجاهلون لا يتصورون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم لا يكون من بينهم، ويرون أن يكون من الملائكة، أو أن يسانده ملك في تبليغ الرسالة: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وهو الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة وعظيمة: ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسرًا

إن مع العسر يسرًا فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾، ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وهو أول مَن أسلم: ﴿قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وهو الذي عبد الله وشكره على تلك النعم بما فوق طاقة البشر حتى انفطرتْ قدماه من كثرة السجود، فأوحى إليه ربُّه: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم لا يملك أن يغير قلوب الناس؛ وإنما ذلك شأن الله: ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلًا﴾، ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾.

إنَّ مهمته الأساسية هي الدعوة إلى عبادة الله بالموعظة الحسنة: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

وهو في تبليغ رسالة السماء لا يسأل الناس على ذلك أجرًا؛ إنما أجره على الله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾، ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

وهو الذي شهد له الحق بأنه بلغ رسالته كاملة، وأنه بريء من الذين أشركوا: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الفصل الثاني

القرآن يردُّ على المستشرقين في ادعائهم أنه غير مُنزَّل

١ - تمهيد.

٢ - القرآن يخبر عن الماضي.

٣ - القرآن يخبر عن المستقبل.

٤ - القرآن يصف الواقع وصفًا دقيقًا ويكشف أسرار الكون.

٥ - ما جاء في القرآن من مخاطبة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم.

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثاني

القرآن يُرد على المستشرقين في ادعائهم أنه غير مُنزَل

تمهيد:

نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة، وهو كلام الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾.

وقد نزل عليه منذ بدء البعثة وابتدأ بالآيات الكريمة من سورة العلق: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾. وخُتم القرآن قبيل وفاته بالآية الكريمة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾.

وبعض القرآن نزل بمكة المكرمة، وبعضه نزل بالمدينة المنورة؛ والذي نزل عليه بمكة يُقَدَّر بثلثيه، أمَّا ما نزل بالمدينة فهو نحو الثلث.

والقرآن في كثير من المواضع يحتاج إلى تفسير لمعرفة معنى الآيات، وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم ما جاء بالقرآن من فروض وأحكام تفسيرًا دقيقًا. وقد قال «ابن تيمية» في ذلك: «إنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بلغ البلاغ المبين، وبين مراده، وأن كل ما في القرآن والحديث من لفظ يقال فيه أنه يحتاج إلى التأويل الاصطلاحي الخاص الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فلا بد أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد بين مراده بذلك اللفظ بخطاب

آخر، لا يجوز أن يتكلم الذي مفهومه ومدلوله باطل، ويسكت عن بيان المراد الحق، ولا يجوز أن يريد من الخلق أن يفهموا من كلامه ما لم يبينه لهم ويدلهم عليه لإمكان معرفة ذلك بعقولهم»[١].

وقد اعتبر «ابن تيمية» ذلك قدحًا في الرسول صلى الله عليه وسلم الذي بلغ البلاغ المبين الذي هدى الله به العباد وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، وفرَّق الله به بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين الرشاد والغي، وبين أولياء الله وأعدائه، وبين ما يستحقه الرب من الأسماء والصفات، وما ينزه عنه من ذلك حتى أوضح الله به السبيل وأنار به الدليل، وهدى به الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق، على حد تعبير «ابن تيمية»[٢].

و«ابن تيمية» يعني بصرف اللفظ عن ظاهره ما جاء في تقرير أصول الدين في مسائل التوحيد والصفات والمعاد والقضاء والقدر وغيرها على يد أصحاب الفرق الكلامية.

وإلى جانب تفسير الرسول قام الصحابة بجهود كبيرة في تفسير القرآن منهم: ابن عباس، ومجاهد، وابن مسعود، وأُبي بن كعب وغيرهم.

وبالنسبة لتفسير القرآن بعد هؤلاء العلماء من السلف نجد هناك فريقين:

الأول: يرى أن التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته هو تفسير نهائي غير قابل لأي إضافة؛ بل إن الإضافة فيه نوع من تحميل القرآن أكثر مما يحتمل، وتعريض كتاب الله إلى نظريات علمية أرضية قد يثبت عدم صحتها

(١) «ابن تيمية»: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» ج١ ص١٠.
(٢) انظر: «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول» ج١ ص١٠.

بعد عشرات السنين.

أمَّا الفريق الثاني: فيرى أن القرآن له عطاءان: عطاء الفروض والأحكام، وهو واضح لا لبس فيه، وأن التفسير الذي حدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ملزم حتى تنتهي الأرض ومن عليها. أمَّا معجزات القرآن هذه فيزداد لها العالم فهمًا. وكلما تقدم العلم كشف الله للناس عن آياته في الأرض؛ ومن هنا فإنَّ عطاء القرآن في هذه الناحية هو عطاء يتجدد لا ينتهي إلا بقيام الساعة، ومن هنا فإن نواحي الإعجاز في القرآن مستمرة(١).

ومما لا شك فيه أن الله قد أودع في القرآن أسرار الكون، إمَّا تلميحًا أو تصريحًا بدليل أنه تعرض لأمور كونية كثيرة في السماوات والأرض. غير أن تلك الحقائق الكونية كان من الصعوبة بمكان تبليغها للناس في صورة تفصيلية واضحة؛ لأن في ذلك ما يفوق طاقة العقل البشري وقدرته على التعقل في الوقت الذي نزل فيه القرآن، ولذلك فإن تلك الآيات يفهم منها كل جيل على قدر طاقته وقدراته العقلية، وهذا هو الإعجاز بعينه في آيات القرآن الكريم، وقد قال تعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

وقد اهتم الرسول صلى الله عليه وسلم اهتمامًا كبيرًا بتفسير آيات الأحكام والتشريع والتكليف، فهذه مهمته الأولى، أما الآيات التي تتناول أساس الكون

---

(١) انظر: الشيخ محمد متولي الشعراوي: «الفتاوى» (٦)، أعده وعلق عليه/السيد الجميلي ص: ٤٤، ٤٥، وانظر له أيضًا: «هذا هو الإسلام» ص: ٢٨، ٢٩، وانظر أيضًا: د/التفتازاني: «الإنسان والكون في الإسلام»، القاهرة، دار الثقافة للنشر سنة ١٩٧٥م.

والإعجاز الفكري والعلمي فقد فسرها الرسول وأئمة الإسلام من السلف الصالح على قدر فهم الناس في ذلك الوقت، وعلى قدر ما تستسيغه عقولهم، ويبقى دائمًا وجه معجز من وجوه القرآن يكشف عنه الله للإنسان رويدًا رويدًا مع تطور العلم وتقدمه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

فلا زالت في القرآن كنوز مستورة يزيح العلماءُ عنها الستارَ يومًا بعد يوم على مرِّ الأجيال[1]؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

وإني أرى أن القرآن الكريم قد جاء به نوعان من الآيات: آيات أوضحها الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح وبينوا تأويلها؛ فصارت معروفة ومفهومة، وهي في أغلبها تختص بالعبادات والمعاملات والعقائد، ثم آيات أخرى تتناول الظواهر الكونية في السماوات والأرض وما بينهما وما بهما من كائنات، وهذه لا يعلم تأويلها حق التأويل إلا الله، ثم الراسخون في العلم، كما صرح بذلك الحق سبحانه في الآية السابقة الذكر: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. وإني أرى أيضًا أن الحقَّ سبحانه يوجه في هذه الآية دعوة صريحة للراسخين في العلم من العلماء؛ ليقوموا بدورهم في توضيح وتفسير ما جاء في القرآن من إشارات كونية في ضوء ما وصل إليه العلم الحديث، فهي أمانة يُحملها الله للعلماء.

وليس المقصود هنا في هذه الآية العلماء أصحاب العلم المشكوك في صحته

(١) انظر: الشيخ محمد متولي الشعراوي: «هذا هو الإسلام» ص: ٢٨، ٢٩.

القائم على الاحتمال؛ وإنما المقصود العلماء الراسخون في العلم الواثقون أن ما وصلوا إليه من علم هو الحقيقة الناصعة، وليس مجرد احتمالات مشكوك في صحتها. هؤلاء فقط هم القادرون على تأويل الآيات الكونية القرآنية تأويلًا صحيحًا.

قال «ابن تيمية»: «إننا نعلم ما أخبرنا به جمهور سلف الأمة وخلفها على أن الوقوف على قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ وهذا هو المأثور عن أُبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادَّعى علمه فهو كاذب»(١).

وقد رُوي عن مجاهد وطائفة: أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله. وقد قال مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته، أقف عند كل آية وأسأله عن تفسيرها»(٢). ولا شك أن تفسير ابن عباس من أجود تفاسير القرآن الكريم.

ولفظ «تأويل» كما يقول «ابن تيمية» قد صار بتعدد الاصطلاحات مستعملًا في ثلاثة معان:

أحدها: وهو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله: «أن التأويل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح

(١) ابن تيمية: «الرسالة التدمرية» ص٣٤.

(٢) انظر: ابن تيمية: «الرسالة التدمرية» ص٣٦.

لدليل يقترن به». وهذا هو الذي عناه أكثر من تكلم من المتأخرين في تأويل نصوص الصفات وترك تأويلها، وهل ذلك يكون محمودًا أو مذمومًا أو حقًّا أو باطلًا؟

الثاني: التأويل بمعنى التفسير. وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن، كما يقول «ابن جرير» وأمثاله من المصنفين في التفسير، واختلف علماء التأويل ومجاهد إمام المفسرين؛ قال «الثوري»: «إذا جاء التفسير عن مجاهد فحسبك به، وعلى تفسيره يعتمد الشافعي وأحمد والبخاري وغيرهم. فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به معرفة تفسيره».

الثالث: من معاني التأويل هو الحقيقة التي يئول إليها الكلام؛ كما قال الله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل جاءت رسل ربنا بالحق﴾. فتأويل ما في القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله فيه مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار ونحو ذلك[1].

ويرى «الإمام محمد عبده» أن لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله، وعن رسول الله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم؛ كقواعد اللغة العربية وآدابها وأساليبها، وأحوال العرب خاصة في زمن البعثة، وما كان الناس عليه في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار، فإن لم تسمح له أحواله بالوصول إلى ما يعده لفهم الصواب من الكتاب والسُّنة، فليس عليه إلا أن

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

يسأل العارفين بهما[١].

وقد رأيت أن أقدم بهذه الآراء حول تفسير القرآن تمهيدًا للتعرض للآيات الكونية بالتفسير في ضوء ما كشف عنه العلم من حقائق الكون.

والحقيقة أن القرآن وحده كاف للرد على زعم المستشرقين بأنه غير منزل؛ وذلك لما يأتي:

أولًا: القرآن يخبر عن الأحداث التاريخية الموغلة في القدم.

ثانيًا: وهو ينطوي على آيات عدة تخبر بما سيحدث مستقبلًا ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس لديه قدرة على كشف الغيب.

ثالثًا: ويصف الحاضر وإشارات موجزة ومعبرة تمس الحقائق الموجودة والظواهر الكونية بما لم يكن معروفًا في عصر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى لكبار العلماء.

رابعًا: والقرآن أيضًا يتضمن عتابًا ولومًا للرسول صلى الله عليه وسلم، وإخبارًا له عن حوادث وقعتْ حوله لا يعلمها، أو ستقع له، والله يخاطب رسوله في كل ذلك ويوجه له الحديث، وليس لكاتب أو مصنف أن يعاتب نفسه ويلومها، وتلك طريقة لم ينتهجها أحدٌ من المصنفين في كتاباتهم.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن القرآن كلام الله وليس كلام البشر.

---

(١) محمد عبده: «الإسلام دين العلم والمدنية» تحقيق/طاهر الطناحي، ص٩٩.

٢ـ القرآن يخبر عن الماضي:

يتضمن القرآن الكثير من الأحداث التاريخية الموغلة في القدم، والتي لا سبيل لمحمد صلى الله عليه وسلم إلى معرفتها؛ لأنه لم يطلع عليها ولم يقرأ عنها، فهو لا يعرف القراءة أو الكتابة(١).

وإنما هو إخبار من الله لنبيه بقصص الأنبياء وتاريخ القدماء منذ آدم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿وكلًّا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾.

فالقرآن الكريم زاخر بأنباء الأمم السابقة، وقد ذهب «الباقلاني» في كتابه «التمهيد» إلى أن من وجوه إعجاز القرآن ما انطوى عليه من قصص الأولين وسير الماضيين وأحاديث المتقدمين، وذكر ما شجر بينهم، وكان في أعصارهم مما لا يجوز لأهل السير، ودرسه لها وعنايته بها ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها مع العلم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتلو كتابًا ولا يخط بيمينه، فدلَّ ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه علام الغيوب(٢).

ومن يريد أن يتبع ما جاء في القرآن من أخبار القدماء وقصص الأنبياء فليرجع إليه، وأرى ألا أطيل الحديث عما جاء بالقرآن من أحداث تاريخية، فإن

---

(١) انظر: كتاب د/محمد عبد الله دراز «مدخل إلى القرآن الكريم» وهو يوضح فيه كيف أنَّ الرسول لم يكن لديه معرفة بالتاريخ.

(٢) الباقلاني: «التمهيد» ص١٣٢.

من المستشرقين -كما سلف الذكر- من زعم أنه استقى تلك الأنباء من الكتب السماوية السابقة وعرفها منها. ورغم وضوح كذب هذا الزعم؛ لأن الرسول لم يدرس هذه الكتب ولم يكن يعرف القراءة من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يقع له أن جلس إلى من يعلمه أن يأخذ عنه، فسيكون الاهتمام الأكبر بما جاء في القرآن من حديث عن المستقبل وما تحمله آياته من وصف دقيق لما هو كائن بالفعل؛ غير أنه كان مجهولًا بالنسبة للعقل الإنساني إلى عهد قريب، وكشف عنه العلم بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان، وسنبدأ بما جاء في القرآن عن الأحداث المستقبلة.

٣- القرآن يخبر عن المستقبل:

لا ريب أننا لو سلمنا مع المستشرقين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ ما حدثنا به القرآن من الأحداث الماضية عن الكتب السماوية السابقة، فلا نستطيع أن نفسر من أين أخذ الأخبار التي تتناول المستقبل، ولا ريب أيضًا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن في حاجة للحديث عن المستقبل؛ لأن المستقبل أمر لا يعلمه بشر، وحديثه عنه ضرب من ضروب المقامرة، فهو إذا لم يصدق ويحدث كما أخبر به وحدث عكس ما قال لكان في ذلك هدمًا للدين من أساسه، وتكذيبًا أكيدًا له ولكتابه، فلماذا يعرض نفسه ودينه لمثل هذا طالما أنه حر في أن يقول ما يشاء؟! فلو كان القرآن من عنده لما وضع نفسه في هذا المأزق؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ما أخبر به الله ورسوله من أحداث مستقبله قد حدثت فعلًا، ثم هناك من الأحداث التي أخبر بها الله ما لم يحدث

بعد كأشراط الساعة مثلًا. ولذا سنقصر الحديث على الأحداث التي وقعت بالفعل بعد أن أخبر القرآن عنها وحدث الرسول بها، والتي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أ- عندما هُزم المسلمون في «غزوة أُحُد» أنزل الله آياته الكريمة التي تخفف من حزن المسلمين، وتعدهم بالنصر المبين وتبشرهم بأنهم الأعلون، وأن الغلبة لهم في قوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾. فلو كان محمد ليس رسولًا وتمَّ له ولأتباعه الهزيمة على يد الكفار، ثم يقول هذا القول ويعد بأن النصر والغلبة ستكون للمؤمنين، ثم لا يصدق قوله، أكان الناس الذين اتبعوه يثقون فيما يدعوهم إليه أو يدخلون في دينه أفواجًا؟

وكثيرًا ما وعد الله سبحانه المؤمنين بالنصر القريب، ووعد الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الغلبة له ولدينه؛ قال تعالى: ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾.

ويبشر الله رسوله والمؤمنين بفتح مكة وانتصارهم على الكفار في قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

كيف يبشر محمدٌ أتباع دينه بالنصر القريب وفتح مكة؛ وهو غير واثق من ذلك، لا بد لرجل يتحدث بهذه الثقة التامة عن النصر القريب والأكيد ويكرر ذلك في عدة مواضع أن يكون موحى إليه من ربه، وإلا لما أكد ذلك وكرره مرات ومرات بشكل قاطع لا سبيل إلى الشك فيه، فهو واثق من أنَّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ وإن كان المنافقون لا يعلمون ولا يصدِّقون.

وقال تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم

ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبا ومغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكن آية للمؤمنين ويهديكم صراطًا مستقيمًا﴾.

وفي هذه الآية يبشر الله رسوله بفتح قريب ومكاسب كثيرة، وهي تتحدث عن «بيعة الرضوان» التي تمت بين الرسول وألف وأربعمائة من المؤمنين تحت الشجرة(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾. وفي هذه الآية يطلب الله من رسوله أن يبلغ الأعراب أنهم سيلتقون بقوم أقوياء يقاتلونهم، وقد اختلف المفسرون في هؤلاء القوم؛ قال عكرمة وسعيد: إنهم الفرس، وقال ابن عباس ومجاهد: إنهم الروم، وقال غيرهم: إنهم أهل ثقيف وهوازن وأهل الأوثان(٢). والحقيقة أن الله لم يحدد من يكونوا هؤلاء القوم الأقوياء، والذي حدث أن المسلمين قد التقوا في فتوحاتهم لنشر الدين الإسلامي بأقوام أولو بأس شديد.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وقد كان سبب نزول هذه الآية أن أعرابيًّا نازع أنصاريًّا في بعض الغزوات على ماء، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكا الأنصاري إلى عبد الله بن أبي فقال له: «لا تنفقوا على مَن

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٣٤٥.
(٢) المرجع السابق: ص٣٤٤.

عند محمد حتى ينفضوا، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرجن الأعز منها الأذل[١]، وقد عنى بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرد الله عليه بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وفي سورة الصافات يقول الله تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون فتولى عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾.

وفي هذه الآيات الكريمة يخبر الله تعالى رسوله بأن جنود المسلمين هم الغالبون والمنتصرون، ويطلب من رسوله ويكرر الطلب أن يصبر على أذاهم إلى حين، ويعده بالنصر على الكافرين، وقد كان ذلك سابق لأوانه، فالنصر قد جاء بعدها فكانت بشرى لغلبة المسلمين قبل نزولها على الرسول، وكان نصر المسلمين في خيبر.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا

(١) قال أهل التفسير وأصحاب السير: غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بني المصطلق، فنزل على ماء من مياههم فوردت وارده، وكان مع (عمر بن الخطاب) أجير من بني عقار يقال له: «جهجاء بن سعد» يقود فرسه، فازدحم جهجاء وسنان الجهني حليف بني الصوف من الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ الغفاري: يا معشر المهاجرين. فلما جاء عبد الله بن أبي قال ابنه: وراءك، قال: ما لك؟ ويلك! قال: لا والله لا تدخلها أبدًا إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعلم اليوم من الأعز ومن الأذل. فشكا عبدُ الله ابنه إلى الرسول، فأمره الرسول بأن يدعه يدخل. انظر: النيسابوري: «أسباب النزول» ص٣٢٠.

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. في هذه الآيات الكريمة يطمئن الله أتباع دينه مؤكدًا أنه تعالى صادق الوعد، وأن رسوله المبلغ عنه صادق في تبشيره للمسلمين أخبارًا عن ربه بالانتصار على الكافرين، ودخول مكة، ودخول المسجد الحرام بإذن الله آمنين، وها هو واسع العلم يطمئنهم قائلًا: ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، ويبشرهم بفتح قريب وانتصارات ساحقة لدين الحق، وإظهاره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا على صدق هذا كله.

قال أنس: «لما رجعنا من غزوة الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نسكنا، فنحن بين الحزن والكآبة، أنزل الله عز وجل: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: **«لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها»**[1]؛ وذلك لأن فيها بُشْرى بالفتح الأعظم.

وكان الكفار في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لا يصدقون تلك الآيات التي تحمل للرسول البشرى بالانتصار عليهم؛ لما كان لهم من عدة أقوى وعدد أكبر ونفوذ أشد، فكانوا يستخفون بها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقولون فيطلب منه الله أن يعرض عنهم، وقد أنزل الله عليه قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾. فالكفار يستعجلون وقوع بأس الله بهم، ويستبعدون ذلك ويكذبونه، ويقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: متى تنتصر علينا يا محمد كما تزعم؟ ما نراك وأصحابك إلا خائفين ذليلين؟! قال

(١) أبو الحسن الواحد النيسابوري: «أسباب النزول» ص٢٨٥.

تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: يوم أن يحل بكم بأس الله في الدنيا وفي الآخرة لا ينفعكم ما عندكم من علم ولا ما تؤمنون به من دون الله، وانتظر يا محمد فإن الله سيحقق لك ما وعدك به من نصر عليهم(١).

ثم يؤكد الحق سبحانه في كتابه العزيز أن الإسلام سينتشر في ربوع الأرض وأن الدين لواقع، وأن الرسالة ستتم ولو كره الكافرون في قوله تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

والله سبحانه يشبه الدين الإسلامي في هذه الآية بالنور الذي سينير الدنيا كلها ويبدد الظلمات، ويسخر سبحانه من أعداء الدين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ولا شك أن في ذلك تصوير بليغ يقلل من قيمة تأثير أعداء الإسلام كمن ينفخ في نور الله بفمه يريد أن يطفئه عبثًا، فالله متم نوره ولو كره الكافرون. من أين جاء لمحمد هذه الثقة التامة بالنصر على أعداء الدين وهو الإنسان الضعيف العدة، وأصحابه قلة من الفقراء والعبيد؛ بينما الكفار سادة لهم من العدد والعُدة أضعاف ما له؟!

وقال تعالى يعد الذين آمنوا بذيوع الدين الإسلام وانتشاره في الأرض وثبات العقيدة الإسلامية وتمسكها مستقبلًا، ويبشر المؤمنين بأن الأحوال في المستقبل ستتغير لصالحهم، وأن الله سيبدل خوفهم أمنًا في قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد

(١) «تفسير ابن كثير» ج٣ ص٧٩.

خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا﴾، وقال تعالى: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾. وما كان محمدٌ بقادر على ضمان مصير دينه في المستقبل وخاصة بعد موته حتى يتحدث بصيغة الواثق من أن الدين لواقع، ولو كان الدين ليس منزلًا ما تحدث محمد صلى الله عليه وسلم بكل هذه الثقة عن مستقبل دينه، وهبْ أننا وافقنا المستشرقين على زعمهم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الذي أَلَّف القرآن، كيف كان يجازف بإطلاق هذه التصريحات ويؤكدها ويعد بانتشار الإسلام في الأرض ورسوخ العقيدة واستقرار المسلمين وتبدل أحوالهم من الخوف إلى الأمن؟! وماذا كان موقفه ومصير دينه لو أن ما حدث هو عكس ذلك تمامًا؟! وما الذي يجبره على الحديث عن المستقبل ما دام هو حرًّا في أن يقول من عنده ما يشاء؟! وهل يتطوع أحد المستشرقين ليجيب لنا على تلك الأسئلة حتى نقنع بصدق زعمهم بأن القرآن ليس من عند الله؟

يقول «الباقلاني»: «إنَّ القرآن أخبر عن الغيب عندما وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ففعل ذلك[١].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه؛ ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجاح، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل ذلك[٢].

وكذلك قال «الغزالي» بعد ذكره لمعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(١) انظر: د/أحمد جمال العمري: «الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري» ص١٠٥.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

«ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم، فإنهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبه ونهبه وقتله وإخراجه. كما أخبر الله عز وجل عنهم، ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن؛ إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه مع ما فيه من أخبار الأولين، مع كونه أميًّا غير ممارس للكتب والأنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في المستقبل»(١).

ب- ولا يقتصر الحديث عن المستقبل على الآيات التي تبشر بنصر المسلمين وانتشار الدين الإسلامي؛ وإنما تمتد إلى موضوعات أخرى متعدده؛ كقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. ففي هذه الآية يؤكد الحق سبحانه أنه منزل القرآن، وأنه كلامه، وأنه سيحفظه إلى أن تقوم الساعة، والدليل على صدق هذا ما نشهده بعد مرور أربعة عشر قرنًا من الزمان على نزول القرآن وهو مصان ومحفوظ من رب العزة، وسيظل كذلك إلى أن يشاء الله(٢).

ج- وفي «سورة الفتح» يخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بما سيقوله المخلفون من الأعراب، ولو كان القرآن ليس من عند الله وعرف الأعراب بقول الرسول أن الوحي نزل عليه يخبره بما يقولونه له، لبدلوا كلامهم بغيره حتى يظهروا كذب محمد صلى الله عليه وسلم؛ وإنما هم يقولون نفس العبارات؛ لأنهم لا يملكون تغيير ما أخبر به الحق؛ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ

(١) الغزالي: «إحياء علوم الدين» ج١ ص١١٣.

(٢) انظر: د/محمد البهي: «القرآن الكريم يقول» ص٦٨، جاء به مزيد من التفصيل في حفظ الله للقرآن.

الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وقال تعالى أيضًا: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكيف لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يعرف ما سيقوله المخلفون بالنص ما لم يكن ذلك إخبار من الله تعالى له عن طريق الوحي.

كذلك قوله تعالى: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾. ففي هذه الآية يخبر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله الكفار عنه، فهم يقولون: ننتظر ونصبر عليه حتى يأتيه الموتُ ونستريح منه، فما هو إلا شاعر؛ قال تعالى: ﴿قل تربصوا فإني معكم من المتربصين﴾ أي: يا محمد قل لهم: انتظروا فإني منتظر معكم وستعلمون لمن تكون الغلبة والعاقبة في الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس رضي الله عنها: إنَّ قريشًا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون (أي: اربطوه واتركوه للموت) حتى يهلك كما هلك مَن كان قبله من الشعراء «كزهير والنابغة» فإنما هو كأحدهم؛ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾[1].

د- كما أخبر الله نبيه بانتصار الروم على الفرس، وهم أكبر قوتين في العالم في ذلك الوقت، وكانت تدور بينهم الحروب الطاحنة، وانتصر الفرس على

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٣٩٢.

الروم؛ فنزلت هذه الآية يخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن الروم هم الذين سينتصرون قريبًا في الكَرَّة القادمة في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿الم غلبت الروم فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. قال المفسرون: بعث كسرى ملك الفرس جيشًا إلى الروم بقيادة «شهر يران» فسار إلى الروم وحاربهم وانتصر عليهم وقتلهم وضرب مدائنهم، وكان قيصر بعث رجلًا يدعى «يحنس» فالتقى مع «شهر يران» في أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلب الفرس الروم، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنكم أهل كتاب، والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم؛ فأنزل الله قوله تعالى: ﴿الم غلبت الروم﴾.

وهذه الآية لا تؤكد انتصار الروم على الفرس فقط؛ بل تحدد أن ذلك الانتصار سيتم في غضون سنوات قليلة لا تتعدى عشر سنوات، فهي تحدد الفترة أو الزمن الذي سيكون خلاله انتصار الروم ببضع سنين، وقد تم انتصار الروم على الفرس بالفعل في يوم «بدر» فأعجب المؤمنون بانتصارهم وفرحوا به مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾. ففرح المسلمون بانتصارهم في «بدر»، وفرحوا بانتصار الروم عندما علموا به، وهذا دليل أكيد وحجة بالغة على أن القرآن منزل من عند الله، وليس من عند الرسول صلى الله

عليه وسلم؛ وذلك لأنه لا يملك أن يقطع بانتصار الروم ويؤكد نتيجة حرب دائرة بين أكبر قوتين في العالم في ذلك الحين وفي الوقت الذي كان الفرس فيه في أوج قوتهم وقمة انتصاراتهم يؤكد هزيمتهم القريبة في خلال بضع سنين، فماذا يكون موقفه لو لم يحدث ذلك في المدة التي حددها وهي بضع سنين؛ أي من سنة إلى عشر سنوات، فلو كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم لما تعرض لمثل هذه التنبؤات، أما وقت أوضحت الآية بشكل صريح أن الغلبة ستكون للروم في القريب، فإن هذا إنما يدل على أن علام الغيوب هو الذي قال ذلك، وقوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فيه تأكيد قوي على أن انتصار الروم أمر واقع لا محالة، فهو وعد من الله لهم بالنصر، والله لا يخلف وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ثم بعد ذلك يدَّعون أن القرآن ليس من عند الله.

هـ- ومن الآيات الدالة على أن القرآن منزل قوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر﴾. ففي تلك الآيات الكريمة يذكر الله وسائل المواصلات البرية المعروفة حتى عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهي: الخيل والبغال والحمير. ثم يشير إلى وسائل أخرى للانتقال سوف توجد مستقبلًا، ولذلك قال سبحانه: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾، وهي تحمل على المستقبل. ولما كانت آيات القرآن معجزة وذات عطاء متجدد فهمت هذه الآيات قديمًا في ضوء معرفة الناس وفي حدود علمهم، فقيل في تفسيرها: إنَّ الله خلق الخيل والبغال والحمير وجعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، فهي ليست للأكل بل للركوب. أما تفسير: ﴿ومنها جائر﴾ فقيل: أي حائد مائل عن الحقِّ. قال ابن

عباس: إنها إشارة إلى الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة[١].

أمَّا في عصرنا هذا فإنه يمكن تفسير قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ أن الله تعالى كان يشير في تلك الآية إلى وسائل المواصلات التي ستوجد في المستقبل كالقطار والسيارة والطائرة وغيرها من وسائل المواصلات المعروفة لنا الآن، والتي كانوا في الماضي لا يعرفون عنها شيئًا، وما سيوجد منها مستقبلًا وهو ما لا نعلم عنه الآن شيئًا ويعلمه اللهُ.

أمَّا «الزينة» فإننا نراها فيما عليه وسائل المواصلات المعروفة لنا من جمال الأشكال والألوان، والتي تزداد زينة ورونقًا على مر الزمن.

أمَّا قوله تعالى: ﴿ومنها جائر﴾ فيمكن أن ترجع حسب السياق إلى وسائل المواصلات التي عرفها الإنسان متأخرًا، فإن منها ما يميل أو يحيد عن الطريق السليم مما يتسبب في الحوادث والكوارث، ولذلك قال الله: ﴿ومنها جائر﴾ أي منها ما ينحرف أو يحيد عن الطريق السليم كسقوط القطارات من فوق القضبان المخصص لها للسير عليه وما إلى ذلك، أو انحراف السيارات عن الطريق المخصص لها مما يعرضها للسقوط وارتكاب الحوادث مما يتسبب في موت ركابها.

ويمكن القول أن من وسائل المواصلات الحالية والمستقبلة ما يتسخدم في أغراض جائرة ظالمة كاستخدام الطائرات في قصف المدن[٢] الآهلة بالسكان بالقنابل والمقذوفات المختلفة.

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٣٢٤.

(٢) انظر: د/منصور حب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٢٣٥.

هذا بالإضافة إلى أن قوله تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ لا يقتصر على وسائل المواصلات فقط، وإنما قصرنا تفسيرها هنا على وسائل المواصلات تمشيًا مع ما جاء في الآية الكريمة من ذكر الخيل والبغال والحمير، وهي كما أشرنا كانت وسائل المواصلات البرية المعروفة في ذلك الوقت. غير أن ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ هي قضية عامة وتعني أن في المستقبل ستوجد أشياء ومخلوقات لا نعلم عنها شيئًا، وأن علام الغيوب وحده هو الذي يعلمها.

كذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعًا إلى حين﴾. وفسر السلف «الفلك المشحون» الواردة في هذه الآية بأنها السفن المملؤة من الأمتعة والحيوانات. قال ابن عباس: «المشحون: الموقور». وقال الضحاك وقتادة: «هي سفينة نوح عليه السلام»(١). وقد اتفق المفسرون على أن الفلك هي السفن.

أمَّا قوله تعالى: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ فقد فسرها ابن عباس بأنها تعني «الإبل» فإنها سفن الصحراء، وهي سفن البر يحملون عليها ويركبونها، وقال السُّديُّ في رواية: هي «الأنعام». وقال ابن جرير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتدرون ما قوله تعالى: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾؟ قلنا: لا. قال: هي السفن جُعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام(٢).

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١٦٤.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

وإذا كانت هذه تفسيرات السلف التي تتفق وعصرهم، فإنه يمكن في عصرنا أن نقول: إن الحق سبحانه وتعالى يشير في هذه الآية إلى أنه سيخلق ما هو شبيه بالسفن يركبها الإنسان في المستقبل، ويمكننا أن نقول: إنها الغواصات وغيرها من المركبات التي تسير في الماء أو تحت الماء مما يشبه السفن، وقياسًا على أن المفسرين قديمًا قالوا: إنها تعني الإبل فإنها سفن البر، فإننا حديثًا يمكننا القول أنها تعني سفن الفضاء فإنها سفن الجو خاصة، وأن تكملة الآية: ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾. فإن سفن الفضاء إذا حدثت لها أعطال، فإنه من العسير إنقاذ من فيها إذا استغاثوا فلا تدركهم إلا رحمة الله، وقد ينقطع اتصالهم بالأرض، وفي تلك الحالة لا يسمع صراخهم أو استغاثاتهم حيث لا هواء ينتقل فيه الصوت ولا منفذ لهم في طبقات الجو العليا.

فالآيات التي لا تخص التشريع والتكليف لا سيما الآيات التي توحي بالإعجازات البيانية والكونية والفكرية لا بد أن تأخذ العقول في فهمها مذاهب شتى، كل واحد منها يفهم بأسلوبه وطرائقه الخاصة. لكن في النهاية لا مساس بقضية العقيدة والتوحيد والإيمان المطلق بالله جل شأنه. وهذه هي الناحية التي يتجدد فيها ومنها الفهم القرآني العقلاني حينًا بعد حين وحقيقة بعد حقيقة[١].

وبذلك يكون القرآن في الآيات السالفة الذكر قد أخبر عن المخترعات التي يعلم الله أن الإنسان سيصل إليها في وقت من الأوقات في مجال

(١) محمد متولي الشعراوي: «الفتاوى» (٦)، أعده وعلق عليه/السيد الجميلي، ص: ٤٥، ٤٦.

المواصلات، فأشار إليها إشارة تتفق مع قدرات الإنسان في الفهم من القرآن، واستنباط المعاني من آياته الكريمة في كل العصور في الماضي والحاضر والمستقبل، وتلك هي بلاغة وعظمة البيان القرآن وإعجازه. وما كان بقدرة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكشف عن كل ذلك ويعرفه إلا بإخبار من الله له عن طريق الوحي.

و- ومن الآيات الدالة أيضًا على أن القرآن يحمل من أنباء الغيب ما يثبت أنه من عند الله قوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾. وقد فسر السلف هذه الآيات بأن الكفار لشدة عنادهم لن يسلموا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته حتى ولو فتح الله لهم بابًا يعرجون فيه إلى السماء، ولو فرض أن تم لهم ذلك ما آمنوا؛ بل لشدة مكابرتهم سيقولون: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾. قال مجاهد والضحاك: أي سدت أبصارنا. وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا. وقال الكلبي: عجبت أبصارنا[١].

وقد تكون هذه الآيات تشير إلى إمكانية غزو الفضاء والعروج إلى طبقات الجو العليا، وأن الإنسان إذا أمكنه ذلك فإنه سيرى ما يسكر أبصاره ويدهشه ويجعله كالمسحور، وهو ما حدث بالفعل، فإن رواد الفضاء قد أدهشهم رؤية الأرض معلقة في الفضاء، كما أدهشهم ما وجدوه من ظلمة دامسة في الفضاء رغم وجود الشمس، وعندما ساروا على سطح القمر وعرفوا أنه يتكون من

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٣٠٩.

صخور وأن شكله يختلف تمامًا عن منظره الجميل الذي نراه عليه من الأرض، فإن ذلك أدهشهم أيضًا، فكيف تكون الشمس مشرقة والظلام كثيف. هذا ولا يزال الإنسان في خطواته الأولى في مشوار غزو الفضاء، فكلما تقدم في هذا المضمار كلما رأى من العجائب والغرائب ما يدهشه ويظن أن أبصاره قد سكرت.

س- كذلك فإن القرآن قد أشار إلى ما سيقوم به الإنسان من إفساد في البر والبحر في قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

وقد جاءني تفسير هذه الآية عن ابن عباس وعكرمة: أن المراد بالبر هاهنا الفيافي، وبالبحر الأمصار والقرى. وفي رواية عنه: البحر والأمصار والقرى وما كان منها على جانب نهر. وقال آخرون: بل المراد بالبر هو البر المعروف، والبحر هو البحر المعروف. وعن مجاهد في تفسير: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ قال: فساد البر قتل ابن آدم، وفساد البحر أخذ السفينة غصبًا. وقال عطاء: المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى، وبالبحر جزائره. ومعنى قوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي. وقال أبو العالية: من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أي: يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارًا منه لهم ومجازاة على صنيعهم. وفي تفسير

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٥٧.

قوله تعالى: ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي: يرجعون عن المعاصي[١].

تلك هي تفسيرات السلف الصالح للآية الكريمة، وهي كانت معقولة ومقبولة في عصرهم، ويمكننا أن نضيف إليها ما عرفنا عن أنواع الإفساد في البر والبحر في عصرنا أن هذه الآية توضح كيف أن الإنسان قد أفسد بما صنعته يداه في الأرض وفي البحر على السواء، فلوث الأرض وجوها كما لوث مياه البحر بما يقوم به من تفجيرات نووية وما يتصاعد من أدخنة نتيجة الاحتراق، وما ينتج عن المصانع من مخلفات ونفايات ذرية يلقيها الإنسان في البر والبحر؛ فيفسد الهواء ويفسد التربة ويفسد المياه، وكل ذلك يؤثر على الكائنات الحية بما فيها الإنسان، كذلك ما تحمله الأمطار الكيماوية والمحملة بالإشعاع من سموم تفسد الأرض والزرع والبحر؛ وبالتالي ينتج عن ذلك أضرار عديدة للإنسان فيذيقه الله بعض الذي اقترفه من إفساد، لعله عندما يشعر بخطر ذلك على حياته ويدرك ما يسببه له من أمراض خطيرة يرجع عن الإفساد ويقلع عنه، ويحرص على نقاء الأرض والبحر حفاظًا على سلامته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

ولقد رأينا جميعًا ما أصاب البر والبحر من فساد وما جر ذلك على الإنسان من ويلات ومخاطر وأمراض، وما يتهدده من التمادي في هذا الإفساد فلعله يرجع عن ذلك.

وهذا إخبار من الله تعالى لما سيفعله الإنسان من إفساد في البر والبحر.

ص- كما أخبر القرآن عما سيتوصل إليه الإنسان من تقدم علمي في علم

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

الهندسة الوراثية بحيث ينجح في التوصل إلى سلالات جديدة وعجيبة من المخلوقات عن طريق تهجين أنواع مختلفة من الحيوانات والحشرات، وربما الإنسان، ولما لا وهو خليفة الله في الأرض وقد فضله الله على الملائكة وأمرهم أن يسجدوا له، وفضَّله عليهم بالعلم والعقل وعلمه الله الأسماء كلها: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾. وحمَّله الأمانة التي عرضها على الملائكة والسماوات والأرض والجبال فأشفقن منها وأبين أن يحملنها وحملها الإنسانُ، فالإنسان سيد الخلق أجمعين، وقد سخر له الله ما في السماوات وما في الأرض، وقد استطاع بعقله وعلمه أن يسيطر على ظواهر الطبيعة ويغير منها ويتحكم فيها ويكشف عن أسرار المادة وأسرار الكون، ويستخلص القوانين والنظريات العلمية التي استطاع بها أن يغير ويطور في المزروعات والحيوانات والطيور وغيرها من الكائنات، واستطاع عن طريق علم الهندسة الوراثية الوصول إلى مخلوقات جديدة عن طريق التحكم في «الجينات» التي هي كائنات حية لا ترى إلا تحت المجهر تحمل الصفات الوراثية لكل نوع من المخلوقات، وكل «جين» من هذه «الجينات» على شدة صغره ودقته هو سجل يحمل صفات السلف.

وقد استطاع العلماء حديثًا أن ينظموا هذه الذرات غير المرئية (وحدات الوراثة أو الجينات) ويجمعوا بين نوعين أو أكثر منها ليصلوا في النهاية إلى إيجاد سلالات جديدة تحمل صفات جديدة هي مزيج من هذه الأنواع.

وتلك المخلوقات الغريبة التي يسعى الإنسان في إيجادها، والتي تستغرق منه وقتًا طويلًا وأبحاثًا مضنية هي لا شيء إلى جانب ما خلق الله من مخلوقات لا تحصى عددًا، فالله سبحانه أعظم الخالقين؛ قال تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن

الخالقين﴾. لقد بلغ من غرور علماء الوراثة أن قال أحدهم وهو «هيكل» (Heakel): أعطني هواءً وموادًا كيماوية ووقتًا وأنا أصنع إنسانًا[١]. وهذا القول هراء؛ فإنه لا يستطيع أن يصنع إنسانًا إلا إذا كان لديه بويضة وحيوان منوي، وهو عاجز عن أن يوجدهما؛ وإن كان قادرًا على أن يحصل عليهما من الإنسان، ثم يصنع بهما ما يشاء، غير أنه عاجز عن خلقهم، فالمهم هو خلق الجينات أو الجرثومة الأولى التي هي نواة الخلق. ولكن على كل حال قول الله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ يتضمن إشارة صريحة إلى أن هناك خالقين من بني الإنسان سيخلقون كائنات أو مخلوقات، فقد أسماهم الله «بالخالقين»، ورغم ذلك فإنهم مهما تقدموا في هذا الميدان حتى وإن بلغوا الذروة في القدرة على ابتكار سلالات جديدة من المخلوقات، فإن قدرتهم هذه لا تمثل قطرة في محيط بالنسبة لقدرة الخالق العظيم الذي هو كما سمى ذاته العلية ﴿أحسن الخالقين﴾. وتتجلى عظمة الخالق في أنه وحده القادر على أن يخلق الخلية الأولى التي تنمو وتتكاثر لتكون الكائن الحي، فهذه سر وجودها لا يعلمه إلا الله، وحتى الآن يعجز العلماء عن إيجادها. هذا إلى جانب عظمة خلق الله للسماوات والأرض ما فيهما وما بينهما من مخلوقات نعرفها وأخرى نجهلها.

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن في استطاعته أن يعرف المستقبل، ويطلع على أن الإنسان سينجح في تخليق بعض الكائنات عن طريق الهندسة الوراثية، حتى يقول: إن الله أحسن الخالقين، وإنما علام الغيوب هو وحده

(١) كريس موريسون: «العلم يدعو إلى الإيمان» ترجمه/ محمد الفلكي، ص١٤٧.

القادر على كشف ذلك والإخبار به في هذه الإشارة السريعة قبل أن يحدث بعدة قرون؛ فدل ذلك على أن القرآن منزل من عند الله.

ط- كما أخبرنا القرآن بما ستصير عليه الأرض من زينة وجمال وزخرفة، وبأن الإنسان سيتحكم في الظواهر الطبيعية الأرضية، وأن ذلك من علامات الساعة؛ قال تعالى: ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلًا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾.

في هذه الآية يشير الحقُّ سبحانه إلى حال الأرض عند قيام الساعة فيصفها بأنها ستكون في أبهى حالات الزينة والجمال والزخرفة بما أنجزه عليها الإنسان من ألوان الجمال والإبداع الفني والعلمي ومزدانة بالحدائق الفخمة والأضواء الأخاذة والمناظر الخلابة وطرقات معبدة، وكل ما سيتوصل إليه الإنسان من اختراعات بارعة وحضارات متقدمة تجمل الأرض وتزينها بكل أنواع الزينة التي أحدثها الإنسان، والتي سيحدثنا مستقبلًا على سطح الأرض: ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حتى اعتقد أهلها بما توصلوا إليه من علوم واختراعات يستطيعون بها أن يغيروا من الظواهر الطبيعية على الأرض ويسيطرون عليها ويتحكمون فيها، فظنوا أنهم قادرون عليها لشدة تدخلهم في سير الظواهر الطبيعية عليه وقوة تحكمهم فيها، فهم يزرعون الصحراء ويصنعون الأمطار ويغيروا الجو البادر إلى دافئ، والحار إلى لطيف، ويقطعون المسافات الطويلة في وقت قصير، ويغزون الفضاء، وغيرها من الإنجازات العلمية الهائلة التي سيصل إليها الإنسان في المستقبل، والتي تمكنه من السيطرة على الأرض يغير فيها ما يشاء حتى يظن أنه قادر عليها، ﴿أتاها أمرنا ليلًا أو

نهارًا﴾ أي: يأمر الله بقيام الساعة وإنهاء الحياة الدنيا، ويكون ذلك ليلًا في مناطق من الأرض، ونهارًا في مناطق من الأرض، ونهارًا في مناطق أخرى، ففي هذه الآية كما هو واضح تصوير لحال الأرض عند قيام الساعة من جمال وزخرف وزينة، ووصف لما سيصل إليه الإنسان من قدرات علمية تجعله يتحكم فيها، أو بعبارة أسلم يظن أنه متحكم، وعندما تصل الأرض إلى ذروة الجمال ويصل الإنسان إلى قمة التقدم العلمي والتكنولوجي تقوم الساعة وينتهي كل شيء؛ قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾. وإذا كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم كيف له أن يعرف ماذا سيجري على الأرض مستقبلًا بهذه الصورة الواضحة وهذه الرؤية.

لا شكَّ أنَّ الله وحده صاحب العلم الواسع الذي وسع علمه كل شيء، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء هو الذي أخبره بذلك.

ظ- يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميًّا﴾ بمعنى: هل تعرف أحدًا سمي باسم «الله»؟ كيف عرف النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدًا لم يطلق اسم «الله» على نفسه؟ وكيف ضمن أن ذلك لن يحدث مستقبلًا؟

يقول الإمام «محمد متولي الشعراوي»: «لكن من الجائز أن محمدًا صلى الله عليه وسلم استقرأ الأسماء فلم يجد أحد من قبله سمى شيئًا (الله) فما الذي كان يضمن له ألا يتجرأ كافر ملحد ليقول: سأتحدى القرآن وأتحدى محمدًا وسأضع اسم الله على أي شيء لي ما حصل ذلك أبدًا. وظل اسم «الله» لله،

ومعنى أن الكفار الملحدين والمعاندين لا يصنعون ذلك فهو دليل قاطع على أنهم يطمئون إلى وجود تلك القوة، وإلا فما الذي يخيفهم»[١].

وفي هذا أيضًا دليل على أن القرآن مُنزَّل من عند الله، وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، تلك أمثلة من الآيات القرآنية التي تتحدث عن المستقبل، وهي ليست حصرًا شاملًا لكل ما جاء في القرآن الكريم من آيات تحمل نبوءات بالمستقبل، والتي لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم يعلم عنها شيئًا؛ ولكنها وحي من الله إليه، ثم يأتي حديث بعد ذلك عن الآيات القرآنية التي تصف الواقع وصفًا دقيقًا، ولا أريد أن أقول وصفًا علميًّا؛ لأن العلم قد يخطئ وهو يصف الواقع ويقرره بنظرياته وقوانينه؛ أمَّا «القرآن» وهو كلام الله الذي خلق كل شيء فلا يخطئ أبدًا. وهذا الوصف الدقيق للواقع لم تعرفه البشرية إلا في عصرنا هذا.

وكان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم لا يدري هو ولا قومُه عن تلك الحقائق شيئًا؛ فكيف يكون هو مصنِّف القرآن؟ وهذا ما سيتضح تفصيليًّا في الحديث عن وصف القرآن الكريم للواقع وصفًا دقيقًا وكشفه عن أسرار الكون؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: لتعلمنَّ خَبرَه وتفسيره الصحيحَ وصدقَه بعد حين.

(١) «هذا هو الإسلام» ص٤٩.

٤- القرآن يصف الواقع وصفًا دقيقًا، ويكشف أسرار الكون:

يتناول القرآن الكريم حقائق الوجود في آياته الكريمة؛ إمَّا تلميحًا أو تصريحًا، وهي حقائق لم تكن معروفة للإنسان، وقد توصل إلى معرفتها بعد نزول القرآن بأربعة عشر قرنًا من الزمان، وتلك الآيات قد فسرها السلف الصالح تفسيرات في حدود قدرة العقل البشري في الزمن الذي تم فيه التفسير، ثم يأتي العلم بعد تلك القرون ليقدم للعقل البشري معرفة جديدة تفهم في إطارها تلك الحقائق التي أشار إليها الحق تعالى في كتابه الكريم؛ فقد كشف العلم عن عظمة ودقة صنع الله في جميع الموجودات الحية منها وغير الحية؛ فكشف أسرارًا كثيرة في عالم الحيوان والنبات والحشرات والطير والإنسان، كما كشف الكثير من أسرار الأرض التي نعيش عليها وعلاقتها بالشمس والقمر وغيره من الكواكب، وتوصل إلى معلومات جديدة عن الكون. وكلما اتسع مجال العلم ودقت نتائجه وتقدمت وسائله كلما كشف عن حقائق هذا العالم الذي نعيش فيه، وبالتالي أمكن للعقل البشري أن يصل إلى معطيات القرآن الكريم، وفهم آياته وتفسيرها بشكل أوضح وأدق، ولذلك قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ كما سبق أن أشرنا.

وليس معنى هذا أن ما توصل إليه العلم المعاصر من قوانين قادرة على كشف أسرار الآيات القرآنية، أو يمكن للإنسان في ضوئها تفسير كل ما جاء بالقرآن من أسرار الكون، وإنما هي تضيء الطريق أمام المفسر ليقف على جزء مما تحمله آيات القرآن من أسرار. وكلما تقدم العلم كلما أمكن كشف أسرار جديدة تحملها الآيات القرآنية. ولذلك قال الحقُّ تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ

مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأود أن أشير في البداية إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أشار في كتابه الكريم إلى أنه خلق في الكون سننًا وقوانين تحكمه، وليس شيء يسير في الكون عبثًا أو بطريقة عشوائية؛ إنما كل شيء فيه بنظام مضبوط ومقدَّر؛ قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلًا﴾، وهذا تصريح من الله تعالى بأن له في الكون سننًا لا تتبدل ولا تتغير إلا بإذنه، والسنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشئون وعلى حسابها تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو قوانين. فالكون يسير وفق نظام مقنن كمًّا وكيفًا، ويجري على نواميس وشرائع وضعها الله له. والعلم المعاصر يحاول جاهدًا الكشف عن تلك القوانين التي تحكم كل ما في الكون[1].

وهناك ملاحظة دقيقة يجب أن يضعها الباحث في اعتباره وهي أن نتائج العلم الإنساني من قوانين ونظريات علمية في شتى فروع العلم ليست يقينية الصدق وثابتة بدرجة مطلقة ولا مجال للشك فيها؛ وإنما هي نتائج الكثير منها احتمالي الصدق، وإن كانت على درجة كبيرة من الصدق والثبات، غير أنها لا ترقى إلى اليقين المطلق، فهي تتطور وتتغير بتقدم وسائل البحث العلمي وفي ضوء ما يستجد من اكتشافات جديدة وأبحاث تُعدِّل فيها وتضيف إليها، وقد

(١) الإمام محمد عبده: «الإسلام دين العلم والمدنية» تحقيق/طاهر الطناحي، ص٣٠.

تلغيها من جذورها وتحل محلَّها قوانين ونظريات جديدة أكثر دقة وأقرب إلى الصحة.

وخلاصة القول أنَّ الكثير من نتائج العلوم متغيرة؛ بينما الحقائق القرآنية ثابتة لا تتغير، ومن هنا كان لزامًا على الباحث المدقق مراعاة هذا تمامًا وآخذة في الاعتبار، وأن يكون في منتهى الحذر عند تفسير آيات القرآن الكريم على ضوء تلك النتائج، ولا يستدعي هذا الحذر أن يعزف الباحث تمامًا عن تفسير آيات القرآن الكريم في ضوء نتائج العلم حتى لا يقع في المحظور؛ لأن هناك آيات قرآنية يشعر الإنسان وهو يقرأها أنها ناطقة بحقيقة كونية، وأن لا تفسير لها غير ذلك؛ مثل قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾، فلا تفسير لها إلا أنَّ الأرض تدور وتتحرك كما سيأتي تفصيلًا.

وقد حث الله الإنسان على ضرورة النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من دابة حتى يتبين عظمة صنع الله وحكمته؛ قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

والقرآن الكريم يتضمن الكثير من الآيات الكونية التي توقظ عقل الإنسان في رفق ويسر، وتطالبه حتى بالنظرة الفطرية إلى هذا الملكوت الرحيب

نظرة إجمالية يهتز لها الوجدان، وهو يتطلع إلى ما في الوجود من جمال[١] كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾.

وقد تدعو بعض الآيات الكونية دعوة واضحة للدخول في التفاصيل العلمية لكيفية الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾. وبناء على هذا الآيات القرآنية الكونية يعتبر التفكير في الكون في نظر الإسلام عبادة تؤدي إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته[٢].

ومما لا شكَّ فيه أن تلك الحقائق الكونية التي حدثنا عنها القرآن الكريم لم تكن معروفة للعلماء في الزمن الذي نزل فيه القرآن، فما بالك بمحمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يجلس إلى معلم يأخذ عنه العلم قط، وإنما علمه ربه الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وفي هذا أقوى دليل على أن القرآن منزَّل من عند الله، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

ومن الآيات التي تتعرض للحقائق الكونية قوله تعالى:

١- في شأن السماوات والأرض:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ

(١) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٤، وانظر أيضًا: د/سهير فضل الله: «الفكر الإسلامي يرد على المستشرقين».

(٢) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٥.

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

إن حقائق الكون موجودة منذ أن خلقه الله، ولا ريب أنها خضعت لألوان من التطور والتغير؛ غير أن الإنسان لم يكشف عنها الستار دفعة واحدة، وإنما أزاحه عنها رويدًا رويدًا، ولم تزل في الكون حتى يومنا هذا العديد من الحقائق الموجودة والتي لم يكتشفها الإنسان بعد، وهو ما يسعى بكل إمكاناته العلمية إلى الوصول إليه مستقبلًا.

وقد تطلع الإنسان إلى السماء منذ فجر التاريخ، ونظر إلى ما يضيء فيها من نجوم وأجرام سماوية، فكانت موضع إعجابه وعجبه.

وفي الآية السابقة يخبر الحق سبحانه عن كمال قدرته وعظيم سلطانه في رفعة النجوم والكواكب والكويكبات والأقمار، وغيرها من الأجرام السماوية، وجعلها معلقة في الفضاء بميزان إلهي محسوب، وبقدرة إلهية عجيبة هي قوة الجاذبية. فكل كوكب ينجذب نحو النجم التابع له بقوة الجاذبية، ويتأثر أيضًا بقوة مضادة هي القوة الطاردة المركزية نتيجة دورانه في فلكه، وتتساوى القوتان مما ينتج عنه استمرار تعلق تلك الأجرام في السماء.

والحقيقة أن هناك عمد يرفع الأفلاك في الفضاء، وهو عمد لا يرى، وهو ما يسميه العلم الحديث قوى الجاذبية التي تسيطر على تماسك هذا الكون ولا نراها، ولكن العلم كشف الستار عنها فاستطعنا أن ندرك معنى العمد غير المرئية التي ترفع السماء، والتي أشار الله إليها في قوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾[1]،

(١) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أي أن الشمس والقمر كل يجري في مداره الخاص بتدبير الله تعالى إلى أجل مسمى، وأن في ذلك لآيات وبراهين دالة على وجود الله سبحانه وتعالى، لعل من يكفر بوجود الله تعالى يوقن بأنه ملاقيه ويؤمن به إيمانًا يقينيًّا(١).

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن يدري شيئًا عن مدارات النجوم والكواكب وقوة الجاذبية بين الأفلاك؛ ولكن خالق الكون ومدبره ومنظمه هو الذي أوحى إليه تلك الآيات.

وقد أوضح الله سبحانه تلك الحركة الدائبة للشمس والقمر والأرض وغيرها من الأجرام السماوية في قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾، وقال تعالى: ﴿والسابحات سبحًا﴾

(١) بدراسة ومتابعة رصد الكواكب السيارة أعلن الفلكي الشهير «كبلر» عام ١٦٠٠م أن مسار كل كوكب سيار حول الشمس قطع ناقص تكون الشمس إحدى بؤرتيه. كما أعلن أن كل كوكب يتحرك في مساره بحيث إذا تصورنا خطًّا واصلًا من مركز الكوكب إلى مركز الشمس، فإن هذا الخط يكنس مساحات متساوية في الأزمنة المتساوية، ثم أضاف «كبلر» قانونًا آخر هو أن مربع زمن دورة أي كوكب حول الشمس يتناسب طرديًّا مع مكعب بعده المتوسط عن الشمس. وأطلق على هذا القانون التوافقي، وهو القانون الذي وضعته العناية الإلهية في انسجام رائع مما جعل «نيوتن» يكتشف قانون الجاذبية العام الذي يسيطر على جميع أجرام الكون.

انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٦٥ وما بعدها.

قال قتادة في تفسيره: «إن السابحات هي النجوم»[١].

وإن إطلاق لفظ السابحات على النجوم يدل دلالة واضحة على أنَّ الأجرام السماوية تدور في الفضاء سابحة في حركة دائبة لا تتوقف، فالسابح لا يتوقف عن الحركة. وهذا ما أثبته العلم بعد تقدم أبحاث الفضاء، فالشمس والقمر وجميع الأفلاك تسبح في الغاز الكوني «الأيدروجين» وتدور في أفلاكها الخاصة بها. فإذا نظرنا مثلًا إلى دوران القمر حول الأرض كمنوذج لاتزان الأجرام السماوية، فسنجد أن الأرض تجذب القمر إليها في اتجاه مركز الدوران، ولكن القمر يتغلب على قوة الجذب بقوة أخرى مساوية ومضادة تعرف بالقوة المركزية الطاردة التي يعاينها أي جسم متحرك في مسار دائري. وبذلك تتعادل القوتان تمامًا كما تتعادل كفتا الميزان ويظل القمر دائرًا في مداره في حالة اتزان إلى ما شاء الله ولا يقع على الأرض[٢]، وصدق الله في قوله: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾، وقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان﴾.

وقد أثبت العلم أنَّ الحركة الكونية للأجرام السماوية منظمة ومقننة، ولا شك أن ذلك بتقدير العزيز العليم، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر، وحركة الأرض حولها حركة محسوبة ومقننة، وينتج عنها الليل والنهار، ولا يمكن لهذا النظام أن يختل أو يختلف؛ فالليل يليه النهار، والنهار يليه الليل،

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٥٩٥.

(٢) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٦٥.

فنصف الكرة الأرضية المواجه للشمس يكون نهارًا، بينما نصفها الآخر البعيد عن الشمس يكون ليلًا، ومع حركة الأرض حول الشمس يحدث العكس، فالنصف الذي كان مواجهًا للشمس يصير بعيدًا عنها تدريجيًّا فيصير ليلًا، وهذا ما عبر عنه الله سبحانه في قوله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

والقرآن هنا يذكر حقيقة نخص الشمس في دورانها حول المجرة ومدار القمر حول الأرض، وكان الاعتقاد السائد قديمًا أن الأرض هي مركز الكون، وأن الشمس والنجوم والكواكب تدور حولها من الشرق إلى الغرب، وأن الأرض ساكنة، ثم جاء «قوبرنيق» في القرن السادس عشر وأثبت أن حركة الكواكب والنجوم يوميًّا من الشرق إلى الغرب حركة ظاهرية خادعة تنشأ بسبب دوران الأرض حول نفسها مرة كل يوم من الغرب إلى الشرق تمامًا كالخدعة التي نعرفها جميعًا ونحن نركب القطار حيث نرى أعمدة التلغراف والأشجار وكأنها تتحرك عكس اتجاه حركتنا[1].

وقد جاء في تفسير السلف لهذه الآية: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ أنَّ من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار، هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان؛ يجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا﴾،

(١) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٢١.

ولهذا قال عز وجل هاهنا: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ أي: نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿فإذا هم مظلمون﴾. وقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾، فسرت ﴿لمستقر لها﴾ تفسيران: أحدهما: أن المراد مستقرها المكاني، وهو تحت العرش، وهي إنما كانت فهي تحت العرش هي وجميع المخلوقات.

وفسرها قتادة بقوله: أي أن الشمس تجري لوقتها ولأجلٍ لا تعدوه. وقيل: المراد أنها لا تزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها، ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليها. وقال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: إن معنى ﴿لمستقر لها﴾ أي: لا قرار لها ولا سكون؛ بل هي سائرة ليلًا ونهارًا لا تفتر ولا تقف؛ كما قال تعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ أي: لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة، و﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي: الذي لا يخالف ولا يمانع، والعليم بجميع الحركات والسكنات، وقد قدَّر ذلك ووقته على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس[1]، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ أي: جعلناه يسير سيرًا آخر يستدل به على مضي الشهور، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار. كما قال عز وجل: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾، وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾، فالقمر يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلًا قليل النور، ثم يزداد

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١٦٢.

نورًا في الليلة الثانية ويرتفع منزله، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير ﴿كالعرجون القديم﴾ قال ابن عباس: أي كالعنقود من الرطب إذ عتق ويبس وانحنى(١).

وقد أطلعنا العلم الحديث على أن ذلك يحدث نتيجة لتوسط الأرض بين الشمس والقمر، فيقع ظل الأرض على القمر فيحجب عنه ضوء الشمس، ومع دوران الأرض يتكشف القمر تدريجيًّا حتى يظهر كله جليًّا متكاملًا، ثم مع دوران الأرض يعود مرة ثانية إلى الاحتجاب تدريجيًّا حتى يصير مظلمًا تمامًا، وهي دورة مستمرة ومنظمة؛ وبناء عليه فإن هذه الآيات تصف الحركات الكونية الخاصة بأهل الأرض؛ وتلك الحركات منها:

أولًا: السلخ: وهو يعني أن الليل هو الأساس والنهار طارئ عليه؛ أي ليس هو الأساس؛ لأن الأرض وجميع الأجرام السماوية موجودة في الظلام التام، فإذا ما نظرنا إليها لا نرى إلا ظلام كوني تام، ولذلك شبه الله النهار بالجلد المسلوخ من الذبيحة، كما شبه الليل بالذبيحة ذاتها. ولا ريب أن الذبيحة أكبر بكثير من جلدها، والظلام هو الأعم والأكبر، والنور أو النهار طارئ عليه.

أما جريان الشمس المذكور في نهاية الآية فهو يشير إلى سباحة الشمس في فلك. إذن الشمس ذكرت في حركتها مرتين «حركة جريان» «وحركة سباحة» فنلاحظ في الآيات أن قوله تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ جاء معطوفًا على

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١٦٢.

قوله سبحانه: ﴿والشمس تجري﴾، وعطف شيء على شيء آخر يدل على مغايرته له، فهناك جريان الشمس وسباحتها.

وقد اكتشف العلم في القرن العشرين حركات الشمس الحقيقية، وليست الظاهرية الخادعة نتيجة حركة الأرض؛ فالحركة الظاهرية أدركها الإنسان منذ بداية الخليقة فهي تشرق من الشرق وتغرب إلى الغرب، وقد اتضح أخيرًا أن هذه الحركة ظاهرية خادعة لا وجود لها، وإنما هي تبدو لنا نتيجة دوران الأرض حول نفسها.

وقد اكتشف العلم حديثًا أن الشمس تجري في الفضاء الكوني جريًا حقيقيًّا في اتجاه نجم النسر الواقع بسرعة قدرها ٤٣ ألف ميلًا في الساعة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿والشمس تجري﴾.

ثانيًا: اكتشف العلم الحديث أيضًا في منتصف القرن العشرين أن للشمس حركة دورانية حول مركز المجرة (مجرة سكة التبانة) التي نتبعها -والتي بها ١٣٠ بليون شمس غير شمسنا- في فلك خاص بها بسرعة قدرها ٤٨٦ ألف ميل في الساعة، وهذه الحركة للشمس هي التي عبر عنها الله في قوله: ﴿والشمس تجري﴾ علاوة على دورانها حول نفسها مرة كل ٢٧ يومًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾، وتلك هي الحركة الثانية للشمس.

فالسباحة عبارة عن حركة انتقالية مصحوبة بحركة ذاتية من الجسم المتحرك، و«يسبحون» هو أدق لفظ توصف به حركة الأجرام السماوية في

أفلاكها؛ لأنها تنتقل دورانيًّا في مداراتها حول نفسها[١].

ولا ريب أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يكن يدري عن حركات الشمس ولا دوران الأجرام السماوية في أفلاكها شيئًا، فدلَّ ذلك على أن القرآن من عند خالق الكون الذي يعلم كل ما خفي وما ظهر.

كما يؤكد الحق سبحانه وتعالى أن مواقع النجوم لها أهمية عظمى، فسبحانه قد خلقها ونظمها في مواقع، وجعل بينها مسافات مقننة، وجعل لها مدارات تدور فيها دون خلل أو اضطراب؛ يقول تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

كيف كان محمد صلى الله عليه وسلم يعلم أن مواقع النجوم قسم عظيم، ولم يكن لديه وسيلة لرصد مواقع النجوم، ولم يكن معلوم للعلماء الشيء الكثير في ذلك الوقت عن مواقع النجوم أن النجوم تبعد عنا بملايين السنين الضوئية والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في مدة سنة كاملة. وإذا علمنا أن سرعة الضوء في الثانية الواحدة هي ٣٠٠٠٠٠ كم، وأن السنة الضوئية تساوي ٦ مليون ميل، وأن أقرب النجوم إلينا يبعد عنا ٩٣ مليون سنة ميل، وأن أقرب النجوم إلى شمسنا هو النجم الخافت «ألفا قنطاوروس» وهو يبعد عنا ٤/٤ سنة ضوئية؛ أي ما يعادل ٣٦ مليون ميل، وأن نجم «الشعرى» وهو ظاهريًّا ألمع النجوم يبعد عنا ٩ سنوات ضوئية[٢].

---

(١) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٠٢، وانظر أيضًا: محمد أبو الغيض المنوفي: «القرآن والعلوم الحديثة» ص٥٣.

(٢) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٠٢.

وهكذا نجد أنه بعد تقدم علم الفلك «والتلسكوبات» الحديثة أمكن رصد مواقع النجوم وأشباه النجوم، ومجرات تبعد عنا أكثر من عشرة بلايين سنة ضوئية أن بعض النجوم التي نراها الآن تسطع في السماء قد تكون نجومًا ميتة لا ضوء فيها حاليًّا؛ لكننا لن نعرف موتها من حياتها إلا إذا جاء في المستقبل آخر شعاع ضوئي صدر منها ليعلن عن خبر وفاتها(١).

إن الله وحده هو الذي يعلم تلك المعلومات عن مواقع النجوم، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. أما الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف أدنى معلومات عن أهمية مواقع النجوم، فدل ذلك على أن القرآن من عند الله.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾. جاء في تفسير هذه الآيات أن الله خلق سبع سماوات واحدة فوق واحدة ومعها يدور سائر الكواكب تباعًا، وللكواكب السيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها؛ فإنها تسير من الغرب إلى الشرق، وكل يقطع فلكه بحسبه(٢).

فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة. وهكذا كل جرم سماوي له مداره الخاص الذي يقطعه في زمن محدد.

---

(١) المرجع السابق: ص١٠٣.

(٢) المدة التي تستغرقها الكواكب في دورانها حول الشمس: عطارد ٨٨ يومًا من الزهرة ٢٢٥ يومًا -الأرض ٣٦٥,٤ يومًا -المريخ ٦٨٧ يومًا -المشترى ١١ سنة و٣١٥ يومًا -زحل ٢٩ سنة و١٦٧ يومًا -نبتون ١٦٤ سنة و٣٢٨ يومًا -بلوتو ٢٤٨ سنة و١٧٥ يومًا -الأطلس العربي طبع القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص٥.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: فاوت بينهم في الاستنارة، فجعل كلًّا منهما أنموذجًا على حدة(١).

والحقيقة أن الله في هذه الآيات فرق بين ضوء الشمس وضوء القمر؛ فضوء الشمس يختلف عن نور القمر، فالشمس نورها من ذاتها، والقمر(٢) جسم بارد مظلم يعكس ضوء الشمس على الأرض فينبعث منه النور المنعكس إليها. ولذلك قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ففرق بين الشمس كمصدر للضوء أو سراج منير، وبين القمر كجسم مظلم عاكس للضوء؛ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي أنَّ الشمس ينبعث منها الضياء؛ أمَّا القمر فهو ينير فقط؛ أي يسقط عليه الضوء المنبعث من الشمس فينيره، وينعكس هذا الضوء إلى الأرض. والتفرقة بين ضوء الشمس ونور القمر لم يكن معروفًا في عصر محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كشف عنه العلم الحديث؛ فدل ذلك على أن القرآن من عند الله خالق الشمس والقمر، وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٥٥٣.

(٢) يبعد القمر عن الأرض بمقدار ٣٨٠,٠٠٠ كم وحجمه ١/٥٠ من حجم الأرض، وكتلته ١/٨٠ من كتلتها، ويتكون سطحه من صحاري واسعة وسلاسل جبلية ومرتفعات دائرية تبدوا كفوهات براكين خامدة، ويكاد يخلو جو القمر من الهواء، ولذا لم يكتشف أي أثر للحياة النباتية أو الحيوانية على سطحه. ويواجه القمر الأرض بوجه واحد دائمًا؛ لأنه يدور حول نفسه مرة في الوقت الذي يتم فيه دوره حول الأرض، لذلك لم يكن يعرف شيء عن الوجه الآخر حتى تم تصويره في أكتوبر ١٩٥٩م بمحطة الفضاء الروسية «لويك ٣» و«أبوللو» سنة ١٩٦٩م.

وقال تعالى: ﴿والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع﴾. وفي هذه الآيات الكريمة يقسم الله سبحانه بالسماء وما فيها من نجوم وكواكب وأجرام لها مدارات ثابتة تدور فيها ثم ترجع من حيث بدأت لتبدأ دورة جديدة، فما أن تكملها حتى ترجع لتبدأ دورة أخرى، وهكذا بشكل مستمر لا يتوقف إلى أن يشاء الله، ولذلك وصف الله السماء بأنها ﴿ذات الرجع﴾ أي: التي تدور فيها الأفلاك دورات ثابتة ثم ترجع وتكررها.

﴿والأرض ذات الصدع﴾ أي: الأرض التي يكثر فيها التشقق، وقد يكون المقصود بها التشققات التي حدثت في القشرة الأرضية وجعلتها على شكلها الذي هي عليه، مما ترتب عليه تكوين قارات منفصلة بعضها عن بعض، ومحيطات وبحار وأنهار وجبال ووديان. كما فسرت ﴿والسماء ذات الرجع﴾ بأنها إشارة إلى الدورة المستمرة بين المحيطات والبحار والأنهار من جهة وبين سحب الغلاف الجوي في سمائنا من جهة أخرى، فإذا تبخر جزء من مياه الأرض بحرارة الشمس فإنه يعود إليها من السماء على هيئة أمطار ... وبهذا تستقر كمية المياه على الأرض فلا تزيد ولا تنقص بسبب استمرار هذه الدورة. وعلى سبيل المثال: فإن البحر الأبيض المتوسط يتبخر الماء من سطحه بمعدل يصل إلى ١٠٠٠٠٠ طن مياه في الثانية الواحدة؛ ورغم هذا فكمية المياه فيه ثابتة منذ أن نشأ وعلى مدى الدهور والأزمان نظرًا لعودة المياه إليه بنفس المعدل[١].

ويتفق هذا التفسير مع تفسير ابن عباس حيث قال: «الرجع» هو المطر،

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٨٩.

وعنه: هو السحاب فيه المطر. ومع ما قاله قتادة من أن السماء ترجع رزق العباد كل عام عن طريق ما تدره من المطر، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم(١). كما فسر ابن عباس: ﴿والأرض ذات الصدع﴾ بانصداع الأرض عن النبات؛ أي تشققها ليخرج منها النبات، كذلك قال ابن جرير وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والسُّدي وغيرهم(٢).

كما أن «الأرض ذات الصدع» أيضًا لا بد في باطنها تشققات صارت منفذًا لخروج المياه الجوفية والغاز الطبيعي والبترول(٣).

والحق أن التفسير الأول لقوله تعالى: ﴿والسماء ذات الرجع﴾ لا يتعارض مع التفسير الثاني، فكلاهما يمثل حقيقة علمية. فالأجرام السماوية لها دوراتها الثابتة التي ترجع وتكررها بشكل منتظم ومستمر، كما أن السماء ترجع وتقيد ما يصعد إليها من مياه البحار والمحيطات والأنهار وغيرها من المسطحات المائية.

كذلك تصدع الأرض فهو إلى جانب أنه يعني ما حدث فيها من تشققات عند بداية تكوينها، فإنه يعني أيضًا أنها تتصدع وتتشقق ليخرج منها النبات والغاز الطبيعي والبترول والحمم البركانية.

وقد جاء في القرآن أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة، ثم انفصلت الأرض عن السماء؛ بمعنى أنها جزء كان ملتحمًا بكل، فهي قطعة من نجم

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٦٢٨.
(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٦٢٨.
(٣) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٨٩.

كبير، ولتكن الشمس أو غيرها كان ملتحمًا بها. وأن كل الأحياء قد خلقها الله من ماء، وأنه تعالى جعل الجبال رواسي فوق الأرض لتثبتها حتى لا تميد أو لتظل محتفظة بوضعها دون خلل، وأنه تعالى خلق الغلاف الغازي المحيط بها والذي يحفظها من أخطار عديدة لعل من يكذبون بوجود الله يهتدون إلى معرفة هذه الحقائق ويستدلون منها على وجود الخالق العظيم الذي أوجدها ونظمها على هذا النحو الدقيق المعجز؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

إن هذه الآيات الكريمة تشير في وضوح وجلاء إلى حقائق كونية عديدة لم يتوصل العلماء إليها إلا في عصرنا هذا فهي:

أولًا: تقرر وحدة المادة في الكون؛ بمعنى أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه كان كيانًا سديميًّا يتكون من ذرات «الأيدروجين»؛ وهو الغاز الكوني، حيث تم طبخ ذرات العناصر الأخرى الأثقل بسبب الحرارة العالية للسديم، والاندماج النووي للذرات؛ مما أدى إلى تكوين الدخان الكوني[1]، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾.

ثانيًا: يقرر سبحانه وتعالى أنه جعل من الماء كل شيء حي، وهذا سيفصل القول فيه في موضع آخر.

---

(١) انظر: Jon Gribbin Macmillan: our changing Universe: London: ١٩٧٨.

ثالثًا: أنه سبحانه جعل الجبال أوتادًا راسية تثبت الأرض أثناء دورانها حتى لا تميد أو تضطرب، وهذا أيضًا سيأتي الحديث عنه تفصيلًا.

رابعًا: أنه سبحانه جعل في الأرض فجاجًا سبلًا؛ أي طرقًا وسهولًا منبسطة إلى جانب ما بها من جبال ومرتفعات.

خامسًا: أنه جعل السماء سقفًا محفوظًا، وهذا أيضًا سنفصل الحديث عنه في موضعه.

سادسًا: أن الله جعل هذا كله آيات دالة على وجوده وحكمته وقدرته وعظمة خلقه وتنظيمه، وأن كل من يكفر بالله معرض عن تلك الآيات الدالة على وجود الله.

وقد توصل العلم الحديث بعد التحاليل الكميائية لنيازك وصخور القمر، وبعد التحاليل الطيفية لضوء النجوم أن السماوات والأرض تتكون من نفس العناصر مما يدل على أن الأرض كانت قطعة من نجم كبير ثم انفصلت عنه[1].

وهناك تفسير لكلمة «رتق» بأنها تعني البيضة الكونية التي انفجرت؛ أي تفتقت. فالعلماء يعتقدون أن عمر الكون يمكن تقديره بصفة مبدئية على أساس ظاهرة تمدد الكون؛ فيقول العالم «هبل»: إننا لو فرضنا أن الكون كان في البداية كتلة واحدة انفجرت في مكان معين، وفي لحظة معينة انفجارًا هائلًا (بيج بانج) فإن شظايا هذا الانفجار العظيم -وهي المجرات- سوف تتناثر في

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص: ٨٠، ٣١٤.

جميع الاتجاهات من مركز الانفجار[١].

أما قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ فمعروف أن الماء هو سبب وجود الحياة على الأرض؛ لأنه لا حياة لنبات أو حيوان أو طير أو إنسان بدون الماء. وتمثل المسطحات المائية على الأرض (٧١٪) من سحطها وبعمق يبلغ في المتوسط ٣٨٠٠ مترًا. وأما باقي السطح (٢٩٪) فهو يمثل الغازات. ومساحة الغلاف المائي أكبر من مساحة اليابسة لحكمة إلهية؛ حتى يتم تلطيف مناخ الأرض بتوزيع درجات الحرارة على سطحها توزيعًا عادلًا، ولولا هذا لما قامت حياة على الأرض، كما هو الحال في القمر الخالي من الماء[٢].

أما قوله تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا﴾ فإن الشمس وهي جسم ملتهب تنبعث منه حرارة شديدة تحول الإلكترونات عن ذراتها إلى أيونات موجبة. وتستطيع أكثر من ذلك أن تفك النواة إلى محتوياتها؛ وبذلك تنفرط الذرات إلى بلازما أولية، كما يتحول الأيدروجين في باطن الشمس بهذه الطريقة إلى بلازما أولية، ثم يعاد توليف وتركيب هذه البلازما بالحرارة أيضًا إلى ذرات جديدة ثقيلة من الهيليوم مع إطلاق طاقة تناظر ملايين وبلايين القنابل الأيدروجينية. وهذه الطاقة هي التي تأتينا من الشمس على شكل ضوء وحرارة وإشعاعات متنوعة، منها الضار والقاتل مثل الأشعة فوق البنفسجية الكونية وأشعة إكس.

والأشعة فوق البنفسجية والأشعة الكونية القادمة إلينا من الشمس حينما

---

(١) المرجع السابق: ص١٧٨.

(٢) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٧٩.

تصل إلى الطبقات العليا من الجو تضرب ذرات الأكسجين وتقشر الكتروناتها، وتحولها إلى طبقة «الأينوسفير» المكهربة، وهذه الطبقة المكهربة تمتص بذلك هذه الأشعة القاتلة وتحمينا منها مثل سقف أو قبة أو مظلة مضروبة فوقنا لحمايتنا(١)، كما أنها تحرق جميع الشهب ومعظم النيازك قبل أن تقع على الأرض.

وقد جاء في «تفسير ابن كثير»(٢): «أن السماء والأرض كانتا رتقًا» أي كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصقًا، ففتق هذه من هذه، فجعل الأرض سبعًا والسماء سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض. وقال سعيد بن جبير: كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما.

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي: جعلناه أصل كل الأحياء، وأن كل شيء خلق من ماء. ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي: جبال راسية؛ لأنها غائرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه بادي للهواء والشمس. وقوله: ﴿وجعلنا فيها فجاجًا سبلًا﴾ أي: ثغرات في الجبال يسلكون فيها طريقًا من قطر إلى قطر ومن إقليم إلى إقليم. ﴿وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا﴾ أي: عاليًا محروسًا أن ينال: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ أي: هذا بظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، ﴿والشمس والقمر﴾ أي: هذه لها نور يخصها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر. ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ أي: يدورون، قال ابن عباس: أي يدورون كما يدور المغزل في

(١) انظر: د/مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص: ٩٢، ٩٣.

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص: ٥٠٦، ٥٠٧.

الفلكة. وقال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل. كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهم[١].

وهكذا يتضح لنا أن الآيات السالفة الذكر تحتوي على حقائق كونية عديدة لا يعلمها في ذلك الحين إلا خالق الكون وما فيه؛ فكيف عرف محمد صلى الله عليه وسلم أن الأرض جزء كان متصلًا بكل ثم انفصل عنه، وكيف عرف أن الكرة الأرضية يحيط بها غلاف غازي محكم ومحفوظ كالسقف بالنسبة للأرض يحميها ويكف عنها الأخطار الكونية؟ وكيف عرف محمد صلى الله عليه وسلم علاقة الأرض بالشمس وأن دورانها حول نفسها أمام الشمس يحدث الليل والنهار، ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس﴾؟ وكيف علم أن الأجرام السماوية سابحة في الفضاء كل في مداره: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ لا ريب أن الله هو الذي أوحى إليه القرآن، وهذا هو التفكير الأكثر منطقية والأقرب إلى المعقولية.

كذلك حدثنا القرآن عن الأفلاك ذوات الأذناب، والشهب والنيازك، وكذلك عن الرعد والبرق والصواعق مثل قوله تعالى: ﴿والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب﴾ قال ابن عباس: هو نجم يضيء ومحرق للشياطين.

ومثل قوله تعالى: ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾.

ويشير الله في كتابه العزيز إلى وجود موجودات في السماء، وتلك

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

الموجودات يشير الله إليها بقوله: ﴿ما في السماوات﴾ في بعض الآيات. وفي آيات أخرى بقوله: ﴿من في السماوات﴾ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن السماوات بها كائنات عاقلة وكائنات غير عاقلة. ومن أمثلة الآيات الأولى قوله تعالى: ﴿لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾. ومن أمثلة الآيات من النمط الثاني قوله تعالى: ﴿وله من في السماوات والأرض كل له قانتون﴾. ومن المعروف لغويًّا أن «من» تستعمل للعاقل، و«ما» تستعمل لغير العاقل. وقال تعالى أيضًا: ﴿وله أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون﴾. وهذه الآية إلى جانب أنها تشير إلى ما في السماوات من مخلوقات، فهي أيضًا تتضمن حقيقة كونية جديدة؛ وهي أن جميع المخلوقات في السماوات والأرض يسلمون لله طوعًا؛ أي بإراداتهم، وكرهًا أي: بدون إرادة منهم.

وهنا قد يتعجب المرء: كيف يكون الإسلام أو التسليم لله كرهًا؟!

وهنا نعود إلى معنى الإسلام وهو التسليم لله سبحانه وتعالى وطاعته والانقياد لأوامره، فإن هذا يعني أن الكون بما فيه من موجودات يسلم لله؛ فالسماوات والأرض ومن فيهن طوع أمر لله يسيرون وفق ما وضع لهم سبحانه من قوانين ونظم وضوابط شاء لهم أن يلتزموا بها، وليس لهم القدرة على عدم التقيد بها. وبذلك يكون كل ما في الكون مسلمًا، حتى أن من لا يؤمن بالله لا يخلو أن يكون مسلمًا في بعض منه، وهو ما أسماه الله تعالى: ﴿كرهًا﴾ لأن أعضاء بدنه وشكله ولونه قد أوجدهم الله على النحو الذي أراد سبحانه. كما أن The Automomic Nervous System الجهاز الذي يتحكم في وظائف أعضاء بدنه المختلفة يسير وفق ما أراده الله وما جبله عليه من أنظمة

دون إرادة منه. فهو لا يستطيع مثلًا التحكم في نبضات قلبه، أو يغير من نظام تنفسه أو ضغط دمه؛ وإنما كلها عمليات مقننة ومنظمةكما شاء الخالق لها أن تكون فهي طائعة مسلمة لله «كرهًا» على الرغم من أن صاحبها ليس كذلك، فهو رغم عنه مسلم كرهًا في هذا الجزء منه؛ وإن كان كافرًا.

وقال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال﴾ وهنا يخبر الله عن تعاليه وعظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، فدان له من في السماوات ومن في الأرض، من أراد ذلك ومن لم يُرد. ولذا يسجد له إجلالًا وتعظيمًا وتقديرًا ولو كره الكافرون. أما قوله تعالى: ﴿بالغدو والآصال﴾ أي: ليلًا ونهارًا[١]، فهم طوال الوقت يسبحون له ويطيعونه دون انقطاع؛ وإنْ كنا لا نفقه تسبيحهم؛ قال تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن. وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا﴾.

وهكذا يؤكد القرآن الكريم في آيات عديدة أن في السماوات أو الكواكب الأخرى مخلوقات، وإن كان علم الفضاء لم يتوصل بعد إلى اكتشاف حياة على الكواكب الأخرى.

وقد جاء في «تفسير ابن كثير»: أن من في السماوات هم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون[٢]، وقيل أيضًا: إنهم الملائكة، وفسر قوله تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٢٧٦.
(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٦٨٤.

أتوه داخرين﴾ بأن الله يوم القيامة سيجمع من في السماوات ومن في الأرض من دابة، والدابة تشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات[١].

ويذهب الدكتور «منصور حسب النبي» إلى أن الكائنات التي تدب وتتحرك في السماء -وهي كائنات عاقلة وزكية وعابدة- ليست قاصرة على الملائكة؛ بدليل التمييز بينها وبين الملائكة في قوله تعالى: ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾. والله سبحانه وتعالى يعلم لغات أهل السماوات وأهل الأرض جميعًا العاقل منها وغير العاقل؛ قال تعالى: ﴿قل ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾.

وتلك الكائنات جميعًا تسأل الله حاجتها وتستعين به في شدتها، ويتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿ويسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾.

كذلك يشير القرآن الكريم إلى احتمال التقاء واجتماع أهل السماوات والأرض؛ فقد ورد هذا التصريح الإلهي في آية مثل قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة. وهو على جمعهم إذ يشاء قدير﴾. ففي هذه الآية إشارة صريحة من الله تعالى إلى احتمال اتصال أهل الأرض بأهل السماء أو العكس إذا شاء الله ذلك. فهو أمر يتوقف على مشيئة العلي القدير.

وقد فسر السلف قوله تعالى: ﴿وهو على جمعه إذ يشاء قدير﴾ بأن الله يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد[٢]؛ وإن كان

(١) المرجع السابق: ج٣ ص٢٧٨.

(٢) انظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٢٧٨.

السياق الذي وردت فيه الآية لا يشير قسط إلى يوم القيامة، لا تصريحًا أو تلميحًا. فسروا: ﴿من دابة﴾ بأنها تشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأخبارهم وأنواعهم، وقد فرقهم الله في أرجاء أقطار السماوات والأرض.

وهذه آية من آيات الله الكبرى الدالة على قدرته ومشيئته سبحانه، وهي إخبار من الله على إمكانية اتصال أهل الأرض والسماوات، وهو إنباء بالمستقبل الذي قد يحدث قريبًا أو بعد حين، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي ألف القرآن فلم يتطرق إلى الحديث عن هذه الأمور؟ فكان الأجدر به أن يحصر اهتمامه في الأمور الدينية؛ فليس الحديث عن المستقبل بهذه الصراحة والجراءة من الأمور التي تمر علينا مر الكرام، وإنما هي تتطلب منا وقفة نتأملها ونستشف منها أن ذلك وحي من الله العلي العليم.

وفي قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء﴾. وقد جاء في شرح هذه الآية أن من يريد الله أن يهديه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان، كما ذكر ابن عباس، ومن يريد الله أن يضله يجعل صدره ضيقًا حَرَجًا -بفتح الحاء والراء-. وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا من الأعراب من أهل البادية عن الحرجة، فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية ولا شيء. قال عمر: كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير. وقال ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقًا؛ والإسلام واسع. وقال عطاء الخرساني: ﴿ضيقًا حرجًا﴾ أي: ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك: ﴿ضيقًا

حرجًا﴾ بـ: لا إله إلا الله حتى لا تستطيع أن تدخل في قلبه[١].

وما أردت أن نقف عنده في هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ وقد فسرها عطاء الخرساني بأن مثله كمثل من لا يستطيع أن يصعد إلى السماء. وقال ابن عباس: كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه. وقال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه؛ يقول: فمثله في امتناعه عن قبول الخير وضيقه عند وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته[٢].

تلك تفسيرات السلف لهذه الآية، ويمكن أن نضيف إليها أن قوله تعالى: ﴿يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد في السماء﴾ يوضح أيضًا أن من يصعد إلى السماء يشعر بضيق في صدره لعدم قدرته على التنفس حيث لا يوجد الأكسجين اللازم لعملية التنفس، فيشعر أن صدره ضيقًا حرجًا لقلة الأكسجين كلما صعد في السماء، ثم انعدامه عند مستوى معين بعد ذلك. ولهذا يشبه الله من يضله عن الإيمان بأنه يجعل صدره يضيق، وهو نفس الشعور الذي يشعر به من يصعد إلى السماء؛ وذلك لأنه لا يطيق الإيمان عندما يصل إليه فيضيق به صدره وكأنه يختنق.

ولقد ثبت فعلًا أن الإنسان يمكن أن يختنق عندما يرتفع إلى مسافة عشرة كيلو مترات في طبقات الجو العليا إذا لم يكن محاطًا بحلة أو غرفة مكيفة الضغط

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٦١٧.

(٢) نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

والهواء، كما أن الدم يندفع من مسام الجسم لو خف الضغط عليه. ولهذا يستخدم رواد الفضاء بدلة مكيفة الهواء وأنبوبة «أكسجين» للتنفس[١].

وهذه الحقيقة الكونية التي تتضمنها هذه الآية والتي لم تُعرف إلا في القرن العشرين بعد أن غزا الفضاء بالفعل وتأكد من اختلاف درجة الحرارة وانعدام الضغط والأكسجين في طبقات الجو العليا كيف عرفها الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا دري شيئًا عن علوم الفضاء؟ إن من أطلعه عليه خالق الكون الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو سبحانه الذي أوحى إليه القرآن بكل ما يحمل من أسرار الكون.

وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كسفًا من السماء ساقطًا يقولوا سحاب مركوم﴾. وكلمة «كسفًا» تعني قطعًا. والكسفة قطعة، وقد جاء في «تفسير ابن كثير» أن الله يخبر عن المشركين والمعاندين أنهم إن يروا كسفًا ساقطًا عليهم من السماء يعذبون به لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: ﴿سحاب مركوم﴾ أي: متراكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾[٢].

وهذا يعني أن قطعًا ما ستسقط من السماء إلى الأرض وهي تصعق من تسقط عليه؛ لأن تكملة الآية: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾ ويقول المعاندون: إنها سحاب كثيف متراكم. وهي ليست كذلك، والله وحده أعلم بحقيقة تلك القطع أو موعد نزولها من السماء.

---

(١) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٩٤.

(٢) «تفسير ابن كثير» ج٣ ص٣٩٤.

ومن الحقائق التي تضمنها القرآن أن الله خلق السماء أولًا ثم بعد ذلك خلق الأرض على شكل بيضاوي، وبعد خلقها أخرج منها الماء والنبات، وتكونت الجبال الراسيات حتى يوفر للإنسان سبل العيش وينعم بتلك الخيرات؛ قال تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعًا لكم ولأنعامكم﴾.

تلك الآيات الكريمة تحمل معاني غاية في العمق وحقائق كونية متسلسلة عن خلق السماوات والأرض؛ يقول تعالى محتجًّا على منكري البعث: ﴿أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها﴾، وقوله تعالى: ﴿بناها﴾ تعبير غاية في الدقة؛ فهي تعني:

أولًا: أن السماء تشبه البناء القوي الذي يحتاج إلى علم واسع، وهندسة دقيقة، وبصيرة نافذة، وحكمة وقدرة.

ثانيًا: إن مكونات البناء -وهي بالنسبة للسماء: النجوم والكواكب والكويكبات والشهب والنيازك والمذنبات وغيرها- توجد بينها علاقة وطيدة هي قوة الجاذبية بينها، فيشد بعضها آزر بعض. كما هو الحال في مواد البناء التي تتآزر جميعها في نظام دقيق حتى يصير البناء قويًّا شامخًا إلى أن يشاء الله.

ثالثًا: استخدام مواد البناء بكميات محددة ومقننة، بنسب دقيقة ومقادير ثابتة حتى يكون البناء متينًا لا ينهار.

رابعًا: عظمة وجمال منظر السماء، كما هو الحال في البناء الفخم الضخم الذي أقيم على أدق وأضبط النظريات الهندسية والعلمية المعمارية. هذا مع

الفارق العظيم بين بناء السماء وأي بناء آخر؛ قال تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجًا وزيناها للناظرين﴾.

وتجلت عظمة خلق الله للسماوات في أن أجرامها معلقة في الفضاء Space بغير عمد مرئية بقوة الجاذبية، وفي أنها سابحة تدور حول نفسها، وتدور حول بعضها في نفس الوقت في دقة بالغة دون خلل أو تصادم فيما بينها. فرفع سمكها وسواها، وجعل ليلًا مظلمًا ونهارًا مضيئًا بحسب دوران الكواكب حول النجوم التابعة لها؛ فالنهار ظاهرة ضوئية تنشأ من سلوك الضوء نفسه الذي أودع الله فيه خواص عجيبة، فالضوء لا يرى بذاته ولكننا نراه بالانعكاس، ويتشتت بواسطة الغلاف الجوي؛ حيث يصطدم الضوء أثناء اختراقه لجو الأرض بجزئيات الغازات المكونة للهواء، وبخار الماء والجسيمات الترابية العالقة بالجو، فيحدث ما يسمى في علم الطبيعة بتشتت الضوء، وقد أفاد جميع رواد الفضاء أنهم عندما اخترقوا الغلاف الجوي للأرض وجدوا أن القشرة الأرضية الكروية المنيرة في هذا الغلاف، والتي تواجه الشمس أثناء النهار لا يتعدى سمكها ٢٠٠ كيلومترًا فوق سطح الأرض. وبعد هذا الارتفاع تظلم السماء تمامًا رغم وجود الشمس التي لا يتشتت ضوؤها في الفضاء الكوني لعدم وجود الذرات اللازمة، لذلك كما تظهر النجوم مع قرص الشمس في السماء الحالكة الظلام، وتبدو الأرض في الفضاء قرصًا منيرًا يسبح في الظلام، والقمر سماؤه مظلمة دائمًا لانعدام الغلاف الجوي[1]، وتلك المعلومات وصل إليها رواد الفضاء بعد أربعة عشر قرنًا من نزول القرآن.

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٢٢٠.

ثم بعد أن خلق الله السماوات خلق الأرض وجعلها على شكل الدحية؛ أي البيضة. وأخرج منها الماء من السديم المتصاعد من الأرض والغازات. كما خلق النباتات بعد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وأخرج منها ماءها ومرعاها﴾. وجعل الله على الأرض جبالًا أرساها وكونها لتكون كالأوتاد تثبت الأرض، وسيكون لنا عودة للحديث عن الجبال في القرآن، وفي ذلك كله منافع للناس ومتاع لهم ولأنعامهم.

فالقرآن -كما يقول الإمام محمد متولي الشعراوي- يمس حقائق الكون على أنها واقعة، غير أنه كان يحترم العقول المعاصرة فيقول: ﴿والأرض مددناها﴾ يعني: بسطنها، ولكن على أي شكل؟ وما هو البسط؟ البسط يأخذ أشكالًا متعددة، وأنت إذا جئت إلى قطعة من القماش ولففتها على مكعب تكون كعبت القماش ... وإن لففتها على كرة تكون كورت القماش، فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل﴾ إذن ما دام تكوير فيكون المكور عليه وهو الأرض لا بد أن يكون كرة.

وما معنى الكرة؟ معناها انحناء السطح، والأرض لا تمتد لكل راء أو لكل واقف على بقعة منها إلا إذا كانت مكورة، أينما تسير تجدها أمامك ممدودة. ولو كانت ليست كروية لكان لها حافة ولها نهاية، إذن قوله تعالى: ﴿والأرض مددناها﴾ يتمشى مع قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[1]، ومع قوله

(١) يذهب د/مصطفى محمود إلى أن «دحى» هي الفعل الوحيد في القاموس العربي الذي يعني البسط والتكوير معًا، ولا يصح التعبير عن حال الأرض إلا بهذا الفعل؛ لأن الأرض منبسطة في الظاهرة مكورة في الحقيقة. ثم إن تكويرها بيضي يشبه تكوير البيضة أو «الدحية»، ولا يوجد في المعجم العربي أي لفظ آخر يعطي الوصف الظاهر والوصف

تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ فمددناها التي أخذت دليل على أنها مسطوحة أصبحت دليل على أنها كروية أيضًا. وإن كان لا يمكن للعين المجردة أن ترى هذا الانحناء[1].

وهذا يؤكد أولًا: أن القرآن يصلح لكل زمان ومكان، وأن أهل كل عصر يفهمون منه على قدر علومهم وعقولهم.

وثانيًا: أن تلك الحقائق الكونية مُنزَّلة من عند الله تعالى، ولا يمكن للرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتي بها مع عدم معرفته بأدنى الحقائق عن علم الفضاء.

وقد فسر «ابن عباس» قديمًا قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ بمعنى أخرج منها الماء والمرعى وشق فيها أنهارًا، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام؛ وذلك لأن كروية الأرض لم تكن معروفة لهم في ذلك الوقت الذي تمَّ فيه التفسير. ففسر السلف دحاها بهذا المعنى؛ في حين أنه وارد في نفس الآية بعد ذلك، فالحق يقول: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها﴾. وليس من المنطق أن يكرر الله نفس المعنى في آية واحدة وهو إخراج الماء والمرعى من الأرض، كما فسر السلف قوله تعالى: ﴿والأرض وما طحاها﴾ قال مجاهد: «طحاها» أي «دحاها». وهذا يؤكد ما سبق قوله من أن القرآن يحمل إشارات كونية وحقائق لم تكن معروفة وقت نزوله، فلم يخطر

المستتر للأرض غير هذا اللفظ، فنحن أمام لفظ ليس له بديل. انظر: «القرآن كائن حي» ص١٦.

(١) «هذا هو الإسلام» ص١٣٤.

للسلف على بال عند تفسير الآيات هذه المعاني، فاجتهدوا في تفسيرها على ضوء معرفتهم.

كذلك حدثنا القرآن عن تفرطح الأرض من جهة قطبيها؛ قال تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾، وتلك حقيقة كونية جديدة.

كما تضمن القرآن إشارات عن الجاذبية التي خلقها الله بين الكواكب والأجرام السماوية عمومًا في قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، وقوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾، وقوله تعالى: ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾. والخبء ما هو مخبوء في السماء أو في الأرض مما يصعب حصره، ويذكر على سبيل المثال لا الحصر: الإشعاعات غير المرئية القادمة من السماء أو المتولدة في الأرض مثل الأمواج اللاسلكية المستخدمة في الإرسال الإذاعي والتلفزيوني، والأمواج الراديوية القادمة من الفضاء لتستقبلها التلسكوبات الفلكية الراديوية الحديثة، والأمواج تحت الحمراء المنبعثة من الأرض والتي تستقبلها عيون الأقمار الصناعية المعروفة بأقمار التجسس، وأقمار الكشف عن الثروات بالاستشعار عن بعد، والأمواج الفوق البنفسجية المستخدمة في العيون السحرية والعلاج، وأمواج الأشعة السينية المستخدمة في المطارات والأبحاث والمستشفيات، وأمواج أشعة جاما المنطلقة من النظائر المشعة، والمواد المشعة كالراديوم واليورانيوم والتي تستخدم في علاج السرطان، وتوليد الطاقة في المفاعلات الذرية ومحركات السفن البحرية والفضائية التي تعمل بالطاقة الذرية، علاة على الجسيمات المشعة «كألفا» و«بيتا» التي تنطلق

من المواد المشعة المدفونة في باطن الأرض وغيرها[١]. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾. كل تلك الحقائق لا يعلمها إلا الله، ولم يكتشفها الإنسان إلا قريبًا.

كما جاء في القرآن إشارة إلى قسمي الأرض الجغرافيين؛ قال تعالى: ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾ نجد أن الحق سبحانه في هذه الآية يقول: (المشرقين) و(المغربين) وذلك لأن شروق الشمس وغروبها لا يكون في وقت واحد على سطح الأرض؛ بل إن الشروق في جزء يقابله الغروب في جزء آخر؛ فشروق هنا وغروب هناك، وعلى هذا فإن ثمة شروقين وغروبين، فهو رب المشرقين ورب المغربين، ولم يقل سبحانه: رب المشرق والمغرب. وتلك حقيقة جغرافية لا شك أنها كانت خافية على الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما قال تعالى: ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾، وهذه الآية توضح تعدد المشارق والمغارب بالنسبة لتعدد الأماكن والإشارة إلى مشارق الشمس والقمر والكواكب والنجوم ومغاربها للدلالة على ملك الله الواسع وعلى دوران الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق فتبدو لنا أجرام السماء جميعًا وهي تتحرك ظاهريًّا من الشرق إلى الغرب في قبة السماء[٢]. وقال تعالى: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾، ويولج تعين «يدخل»، فالليل والنهار متداخلان؛ فالليل في مناطق على سطح الأرض يقابله النهار في

(١) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٢٤٢.

(٢) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٦٨، وانظر أيضًا: محمود أبو الفضل المنوفي: «القرآن والعلوم الحديثة» ص٦٦.

مناطق أخرى.

وقال تعالى أيضًا مؤكدًا نفس المعنى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ وقد فسر السلف[١] كلمة اختلاف التي وردت في هذه الآية بأنها تعاقب الليل والنهار، واختلافهم في الطول والقصر، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أنها تعني أيضًا اختلافهما من منطقة إلى أخرى على سطح الكرة الأرضية.

كما يشير القرآن أيضًا إلى ميل المحور الوهمي للأرض على مستوى فلكها حول الشمس، مما يؤدي إلى تتابع فصول السنة (شتاء، ربيع، صيف، خريف)، ولولا ميل هذا المحور والمسار الإهليجي (البيضاوي) للأرض حول الشمس لاختلفت الفصول وتساوى طول الليل والنهار في جميع بقاع الأرض[٢]؛ وقال تعالى في ذلك: ﴿واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾، وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾.

تلك الحقائق عن شكل الأرض الكروي وتفرطح قطبيها وقسميها الجزافيين وميل المحور الوهمي للأرض، كل تلك المعارف كانت في زمن نزول القرآن لا يعلمها إلا الله وحده خالق الكون ومنزل القرآن.

وقال تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾. وتلك الآية بها إشارة إلى صريحة من الحق سبحانه وتعالى إلى حقيقة كونية ألا وهي دوران الأرض. فالناظر إلى

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٣٤٦.

(٢) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٦٨.

الجبال يظن أنها جامدة لا تتحرك؛ بينما هي تمر مر السحاب، ولذلك قال تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ فالجبال تتحرك كما يتحرك السحاب؛ لكن هل الجبال تتحرك من أماكنها وتسير أم أنها ثابتة؟ هي ثابتة ولكنها محمولة على الأرض التي تدور وتحدث الحركة. والله تعالى قد شبه حركة الجبال بحركة السحاب؛ حيث إن السحاب لا يتحرك بذاته، وإنما تحركه الرياح. وكذلك حركة الجبال فهي تابعة لحركة الأرض ما دامت الجبال ثابتة وراسية كالأوتاد[١].

ولما كانت الأرض تتحرك بما عليها فإننا لا ندرك حركتها، وحركة الأرض حقيقة أثبتها العلم قريبًا في عصرنا هذا. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وجعل في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ ويقول أيضًا: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾، والميدان هو الاضطراب، فكيف تميد الأرض وهي ثابتة لا تتحرك، وما الذي يجعلها تميد؟ وما حكمة خلق الجبال عليها؟

يقول الإمام الشعراوي: «إذا كانت الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت، ما الذي كان يعرضها أن تميد أو تتحرك؟ إذن فهي مخلوقة على هيئة الحركة، والجبال مجعولة مثقلات فيها[٢]، وتلك المعلومات عن دوران الأرض لم يكن يعرفها في ذلك الحين إلا الله وحده.

وقال تعالى: ﴿هو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارًا ومن كل الثمرات﴾.

---

(١) ارجع إلى حديث الشيخ محمد متولي الشعراوي عن دوران الأرض في كتابه «هذا هو الإسلام» ص: ١٣٦ إلى ١٣٨.

(٢) «هذا هو الإسلام» ص١٣٨.

وتلك المعلومات عن دوران الأرض ووظيفة الجبال والحكمة من وجودها لم يكن يعرفها النبي صلى الله عليه وسلم، مما يؤكد صدق نبوته، وأنه كان يوحى إليه من الله. فليس عجبًا أن يفوت المفسرين جميعًا المعنى العلمي الذي تحمله هذه الآيات؛ لأنهم لم يكونوا يعرفوا أن للأرض حركة يومية وحركة سنوية. ولكن اليوم في عصر العلم تبدو لنا تلك الآيات معجزة علمية قرآنية تقرر أن الأرض كروية، وأن الجبال ليست ثابتة، وإنما تمر مر السحاب بدوران الأرض، وقد فسرها السلف قديمًا بأنها تشير إلى زوال الجبال يوم القيامة، وقد جاء في «تفسير ابن كثير»[1]: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي: ترى الجبال كأنها ثابتة باقية على ما كنت عليه وهي تمر مر السحاب؛ أي تزول عن أماكنها. وهكذا يفهم كل جيل من القرآن على قدر علمه ومعرفته.

وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا﴾. وفي هذه الآية أيضًا دليل قوي على دوران الأرض حول نفسها؛ لأنها لو كانت ثابتة غير متحركة لسكن الظل ولم يتغير طولًا وقصرًا، وتلك رحمة من الله تعالى بعباده؛ إذ لو كانت الأرض ثابتة أمام الشمس لكان نصفها المواجه للشمس نهارًا دائمًا وحرارة مستمرة، ولكان نصفها الآخر في ظلام دائم وبرودة شديدة، وهذا بالطبع له تأثيره الخطير على حياة الكائنات جميعًا على الأرض فهو يؤدي إلى هلاكها.

كما تشير الآية إلى دور الشمس كمؤشر للظل نظرًا لاختلاف نفاذية الضوء

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٦٨٥.

خلال الأوساط المادية المختلفة، ولاختلاف المواقع الظاهرة للشمس خلال النهار بسبب دوران الأرض حول نفسها، وبمعدل يؤدي إلى نسخ الظل تدريجيًّا بمقدار متناسب مع مرور الزمن، وليس دفعة واحدة، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿قبضًا يسيرًا﴾.

ويتضح من الآية أنها لم تتعرض للطريقة التي كان يعتقد في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الظل كان يتكون بها طبقًا للفكرة الخاطئة التي كانت سائدة وقتذاك، وهي انتقال الشمس من الشرق إلى الغرب؛ وبهذا فإن القرآن لم يذكر آيات كونية خاطئة، وذلك دليل على أنه مُنزَّل(١).

ويخبرنا القرآن أيضًا عن حقيقة كونية أخرى وهي اختلاف طول اليوم على الأرض عنه في السماوات العلا؛ قال تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾، وقال تعالى: ﴿وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾. فطول اليوم على الأرض يختلف عن طوله على أي كوكب آخر. فإذا خرج رائد الفضاء من أقطار النظام الحركي للمجموعة الشمسية، وذهب إلى مجمعة نجمية أخرى يدخل في تقويم زمني مختلف مستمد من نظامه الحركي الجديد(٢).

كيف كان لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم أن يعرف هذه الحقيقة ويتوصل إلى أن طول اليوم على الأرض يختلف عن طوله في السماوات العلى. إنه إخبار من الله تعالى له، فهو وحده عَلَّام الغيوب الذي كان يعلم تلك الحقيقة في وقت نزول القرآن.

---

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٦٣.

(٢) د/مصطفى محمود: «من أسرار القرآن» ص٢٥.

وعلينا أن ندرك -كما يقول الدكتور منصور حسب النبي- أن اليوم الإلهي قد يمثل ألف سنة مما نعد على الأرض، والمقصود «بألف» هو التعدد؛ لأن الله سبحانه وتعالى كان يخاطب العرب بعقولهم. وقد كان الألف في اعتقادهم من أكبر الأرقام، فلم يكونوا مثلًا يعرفون المليون أو البليون. ولهذا قال تعالى: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾. حقًّا إن اليوم عند الله يمثل مرحلة زمنية لا يعلمها إلا هو. وإن إشارته تعالى إلى خلق الكون في ستة أيام لا تتعارض مع العلم الحديث ما دام اليوم الإلهي يمثل مرحلة زمنية أو طورًا من الأطوار قد يمتد آلاف أو ملايين السنين[1].

إن هذا يعني أن الزمان يختلف من مكان إلى آخر في هذا الكون الفسيح المملوء بالحركة باختلاف حركة الراصد والمرصود ومكانهما. وهذا مما لا يعلمه علمًا شاملًا إلا الله؛ لأنه سبحانه محيط بالمكان والزمان؛ قال تعالى: ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾، وقال تعالى في نسبية الزمن: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض﴾. وفي هذه الآية يشير الحق سبحانه إلى أن ٣٠٠ سنة شمسية تعادل ٣٠٩ سنة قمرية بالنسبة لسكان الأرض. وبهذا سبقت الآية علوم الفلك والحسابات الفلكية بعدة قرون.

---

(١) انظر: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن».

ويرى مصنِّف الكتاب أن في قوله تعالى: {وخلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} ردًّا على ما جاء في التوراة من أن الله قد استراح في اليوم السابع، كما نلاحظ في قوله تعالى: {وما مسنا من لغوب} تعني أن الله سبحانه لم يتعب حتى يستريح، ولا يجوز عليه التعب، وتلك الأيام لا تعني الأيام الأرضية؛ وإنما جاءت معبرة عن الأيام الإلهية التي تمثل أحقابًا وأطوارًا زمنية لا يعلم عددها إلا الله. انظر: ص: ١٠٠، ١٠١.

كما يظهر الإعجاز العلمي الرائع في قوله تعالى: ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾ يقول في ذلك الدكتور منصور حسب النبي: «إذ كيف يتسنى لنا دون التسليم بأن القرآن يقصد بهذه العبارة ظاهرة «نسبة الزمن» أن ننفي وجود تناقض ظاهري بين الإخبار في الآية بعدد السنوات التي أمضاها أصحاب الكهف في كهفهم، وبين التصريح مرة أخرى بأن الله وحده هو الأعلم بالعدد الحقيقي لتلك السنوات. ألا يعني هذا أن عدد السنوات المقصود يختلف حتمًا من مكان إلى آخر في هذا الكون»[1].

٢- في شأن المطر:

يحدثنا الحق تعالى في القرآن عن كيفية تكوين السحاب والركام وحدوث الرعد والبرق وسقوط المطر والبرد؛ قال تعالى: ﴿ألم ترى أن الله يزجي سحابًا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾. وفي هذه الآية الكريمة أشار إلى أن السبب في حدوث الرعد والبرق وهو الكهربائية الكونية الناشئة من احتكاك السحاب.

وقال تعالى: ﴿الله الذي يرسل الريح فتثير سحابًا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا. فترى الودق يخرج من خلاله. فإذا أصاب به من يشاء إذا هم يستبشرون﴾. وفي تلك الآية الكريمة يصور الحق سبحانه كيف أنه يرسل الريح التي تبخر مياه المسطحات المائية فتثير سحابًا وتكونه فيبسطه الله في السماء ويجعله كسفًا؛ أي قطعًا فتنتشر في أرجاء الآفاق؛ أي بالطريقة والكيفية

(١) «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٠١.

التي أرادها سبحانه، ثم يمده وينميه ويجعله ﴿ركامًا﴾ أي: متراكمًا، ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي: فترى المطر يخرج من بين السحاب، والودق هو نقطة الماء الكبيرة التي تخرج من السحاب. ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ أي: إذا سقط المطر على قومٍ فرحوا به لحاجتهم إليه.

إنَّ تلك الآيات تصف عملية سقوط الأمطار وصفًا دقيقًا لا يعرفه إلا العلماء، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يدري عن تلك العمليات شيئًا.

وقال تعالى: ﴿وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها. وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾. كيف يحيي ماء المطر الأرض بعد موتها. كان فهم هذه الآيات قديمًا يقتصر على أن الله يحيي النباتات التي تخرج من الأرض وتنبت فيها بماء المطر، والتي بدونها تظل الأرض دون إنتاج وعطاء وكأنها ميتة. غير أن العلم الحديث قد أوضح لنا معاني جديدة للآية عندما اكتشف حديثًا أن هناك طريقتين يدخل بهما «النيتروجين» القابل للذوبان في الأرض كمخصب لها، أو كسماد. وبدون «النيتروجين» في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية. وإحدى الوسيلتين اللتين يدخل بهما النيتروجين في التربة الزراعية هي من طريق نشاط جراثيم «بكتريا» معينة تسكن في جذور البرسيم والنباتات البقلية وتميزها. وهذه الجراثيم تأخذ «النيتروجين» من الهواء وتحلله إلى نيتروجين مركب.

أمَّا الطريقة الثانية فهي عواصف الرعد، فكلما ومض برق خلال الهواء وحد بين قدر قليل من «الأكسجين» وبين «النيتروجين» فيسقطه المطر إلى

الأرض «كنيتروجين» مركب يخصب التربة ويساعد على نمو النباتات. ففائدة ماء المطر لا تقتصر على ري النبات حتى ينمو فحسب. وإنما هو يحمل إليها «النيتروجين» المركب، ويوضح ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وجعلنا سراجًا وهاجًا، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجًا لنخرج به حبًّا ونباتًا وجنات ألفافًا﴾. فهذه الآيات بها إشارات إلى الشمس المضيئة «والمعصرات» وهي السحب الممطرة، كما أن بها إشارة إلى أهمية ماء المطر في نمو المواد الغذائية؛ لأنه يحمل «النيتروجين» المخصب للتربة، وتبرز أهمية الشمس في تبخير الماء المكون للسحاب الذي يؤدي إلى سقوط المطر.

وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألونها، وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. يشير الحق تعالى في هذه الآيات إلى كمال قدرته في خلق الأشياء المتنوعة المختلفة الألوان من الشيء الواحد، وهو الماء الذي ينزل من السماء فيخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها من الأصفر والأخضر والأبيض والأسود، إلى غير ذلك من ألوان الثمرات كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها ورائحتها[١]. كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾. كذلك يبين الله في هذه الآيات اختلاف ألوان الجبال باختلاف المواد التي تكونها، فهناك جبال بيضاء اللون لأنها أحجار جيرية، وأخرى حمراء اللون لوجود الحديد بها، وثالثة

(١) «تفسير ابن كثير» ج٣ ص١٤٥.

سوداء لأن بها منجنيز وفحم، قال عكرمة: «الغرابيب» الجبال الطوال السود. وقال ابن جرير: العرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا: أسود غربيب(١).

وهناك الجبال التي تتكون من الجرانيت والبازلت، والتي تحتوي على عروق الحديد والنحاس والذهب وغيرها من المعادن والصخور مما يؤثر على اختلاف ألوانها وتعددها.

كذلك خلق الله بني آدم بألوان مختلفة، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد، وروم في غاية البياض، والعرب بين ذلك، والهنود دون ذلك. وكذلك الأنعام والدواب مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد؛ بل في النوع الواحد(٢).

ولذا قال الله بعد ذلك: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾، والمقصود العلماء العارفون به؛ لأن العالم الذي يقف على كمال الله وكمال صنعه في خلقه لهذه المخلوقات المتنوعة ذات الألوان المتعددة الجميلة يخشى صانعها وخالقها. وكلما تعمق في علمه، كلما وقف على حقائق ودقائق جديدة زادته إيمانًا على إيمانه وخشية وإجلالًا للخالق المبدع العظيم.

وكما أشار الحق سبحانه إلى أهمية ماء المطر العذب في إنبات النباتات وفي تكون «النيتروجين» المركب القابل للذوبان في الماء من الأمطار الرعدية، وفي تكوين الجبال الرسوبية، وفي حياة الإنسان والحيوان وغيرها من الكائنات

(١) كريس موريسون: «العلم يدعو إلى الإيمان» ترجمة/ محمد صالح الفلكي ص٦٧.
(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص١٤٥.

الحية. أشار أيضًا إلى خطورة مياه الأمطار الفاسدة والتي لا تصلح للشرب ولا لري النبات، فيقول تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون، لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون﴾. ففي هذه الآيات الكريمة يخبرنا الله سبحانه وتعالى أن ماء المطر الذي ينزله من المزن أو السحاب ماء عذب فران، ولو شاء الله لجعله فاسدًا غير صالح للشرب، ﴿لو نشاء جعلناه أجاجًا﴾ أي: زعافًا مرًّا لا يصلح للشرب[1]. وهي إشارة من الحق سبحانه إلى الأمطار الكيماوية السامة والأمطار التي تكون مشبعة بالإشعاع النووي المميت. وقوله تعالى: ﴿فلولا تشكرون﴾ تعني: فهلا تشكرون نعمة الله في إنزاله المطر عليكم عذابًا زلالًا. ففي هذه الآية يحدثنا الله عن نوعين من المطر العذب الصالحة مياهه للشرب بقدرة الله وإرادته، والماء غير صالح للشرب والاستعمال المشبع بالمواد السامة.

تلك المعلومات الدقيقة عن المطر، كيف يتكون وفوائده ومضاره ووصفها بهذا الشكل الدقيق والإشارة إليها في كلمات قليلة معبرة ما كانت معروفة للنبي ولا قومه، ولم تعرف إلا حديثًا؛ فدل ذلك على أن القرآن منزل من عند العليم الحكيم.

٣- في شأن المخلوقات على الأرض:

ويحدثنا الله عن المخلوقات التي أوجدها على الأرض في مثل قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٤٣٧.

في هذه الآية الكريمة إشارة من الحق سبحانه إلى أن الدواب والطيور أمم لهم نظمهم ولهم حياتهم الخاصة، والتي يكشف عنها العلم يومًا بعد يوم. وكلما تقدمت وسائل البحث العلمي كلما وقفنا على المزيد من المعرفة الدقيقة عن أحوال الكائنات التي حولنا، فقد أثبت المتخصصون في دراسة الكائنات الأخرى غير الإنسان أنهم أمم أمثالنا.

يقول مجاهد في تفسير هذه الآية: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. وقال قتادة: «الطير أمة، والإنس أمة، والجنة أمة». وقال السدي: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ أي: خلق أمثالكم(١).

ذلك هو تفسير السلف لتلك الآية، وهو لا يتعارض مع الفهم المعاصر لها. غير أنه في ضوء ما استطاع العلم المعاصر كشفه من تفاصيل دقيقة عن حياة هذه الكائنات وطرق معيشتها، وكيف تؤسس أعشاشها وما يجيش بين أفرادها من الذكور والإناث من عواطف ورعايتها لأولادها ودفاعها عنها وهجرتها طلبًا للدفء والغذاء، وادخارها للطعام واتباعها لقائدها، وغير ذلك من المعلومات الدقيقة عن حياة هذه الكائنات. فقد نجح العلماء في تصوير أعماق البحار فأطلعونا على غرائب ما يجري في عالم البحار، فإذا أخذنا على ذلك مثلًا العناكب المائية، وهو نوع يصنع لنفسه منطادًا بالألوان من خيوط العنكبوت وتعلقه بشيءٍ ما تحت الماء، ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر تحت جسمها وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش. ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش وعندئذ تلد صغارها وتربيها آمنة عليها من هبوب الهواء.

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٥٧٦.

من هنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحة جوية أيضًا[١].

ويبدو أن الحيوانات لها قدرة على تبادل الشعور، ومن ذا الذي يرقب طائر «الطبطاوي» أو «زمار الرمل» ولم يعجب به وهو يحلق ويدور حتى تطير كل الطيور ذوات الصدر الأبيض في أشعة الشمس في وقت واحد[٢].

وإذا حملت الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى أعلى، فإنها ترسل إشارات خفية للذَّكر الذي قد يكون على مسافة بعيدة عنها؛ ولكنه يتلقى الإشارة ويجاوبها مهما أحدثت أنت من رائحة لتضللها. ترى هل لتلك المخلوقات الضئيلة محطة إذاعة؟ وهل لذكر الفراش جهاز راديو عقلي فضلًا عن السلك اللاقط للصوت «إيريال»؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز[٣].

والجندبة «النطيط» الأمريكية Katydid تحك ساقيها أو جناحيها معًا، فيسمع صريرها هذا في الليل رفيقها على مسافة نصف ميل أنها تهز ستمائة طن من الهواء لتناديه[٤].

والنحل والنمل يبدو أنها تدرك تنظيمًا خاصًّا وتحكم نفسها؛ فلها جنودها وعمالها وعبيدها ويعاسيبها على صغر حجمها. وقد قال الإمام علي بن أبي

---

(١) أ. كريس موريسون: «العلم يدعو إلى الإيمان» تصدير الشيخ الباقوري، ترجمة محمد صالح الفلكي، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق: ص١١٩.

(٣) المرجع السابق: ص١٢١.

(٤).

طالب رضي الله عنه في وصف نملة -كما جاء في كتاب «نهج البلاغة»-: «انظرو إلى النملة في صغر جثتها، ولطف هيئتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها وهبت على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتعدها في مستقرها، تجمع في حرها لبردها، وفي ورودها لصدرها ... مكفولة برزقها مرزوقة بوقفها، لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان، ولو في الصفا آكلها، في علوها وسفلها، وما في الجوف من سراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجبًا ولقيت في وصفها تعبًا ... فتعالى الله الذي أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها، لم يشاركه في فطرانه فاطر، ولم يعنه في خلقها قادر»(١).

أمَّا النحل فله مملكة منظمة غاية في الدقة والانضباط، يقسم العمل بين أفرادها، وكل فرد فيها يقوم بما يوكل إليه من عمل في غاية النشاط والإخلاص.

والملاحظ للدواب والطيور والحشرات والدارس لها دراسة دقيقة عن قرب يرى العجب مما لا يخطر على بال من التنظيم والتكافل الاجتماعي والعواطف وغيرها؛ وبذلك يتضح لنا صدق قوله تعالى عنها جميعًا: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾.

٤- في شأن الريح:

يتضمن القرآن الكريم حقائق دقيقة عن الرياح؛ يقول الحق سبحانه:

---

(١) انظر: «نهج البلاغة»، وانظر أيضًا: أ/كريس موريسون: «العلم يدعو إلى الإيمان» تقديم الشيخ أحمد حسن الباقوري، ترجمة/محمد صالح الفلكي، ص١٢٩.

﴿وأرسلنا الرياح لواقح وأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾. ففي هذه الآية يخبرنا الحق سبحانه عن وظيفة الرياح؛ فهي تقوم بتلقيح السحب الموجبة والسالبة، وهو ما يسمى «بالتلقيح الكهربي» أو «التكهرب» الذي يحدث التفريغ الكهربي وما يصاحبه من برق ورعد.

كما أن الرياح تحمل حبوب اللقاح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث في النباتات والزهور المختلفة.

ثم هي أيضًا تحمل بخار الماء الذي ينزل المطر على الأرض فيلقحها ويخصبها(١).

كما تشير الآية إلى أن ماء المطر لا يمكن خزنه؛ لأنه سوف يتسرب حتمًا بشتى الطرق إلى الجو مرة ثانية لتتم الدورة المستمرة بين المسطحات المائية من جهة وبين الغلاف الجوي من جهة أخرى، فإذا تبخر جزء منه يعود إلى الأرض مرة ثانية على شكل أمطار، ومن هنا يتضح قوله تعالى: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾.

وقال تعالى: ﴿وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾. والمقصود بتصريف الرياح تحريكها وتوجيهها بواسطة حرارة الشمس ودوران الأرض حول نفسها حتى تقوم بمهمتها في حمل السحب وتلقيحها «ومدها بنوبات التكاثف كأملاح البحر والأكاسيد والأتربة» التي تتجمع عليها قطرات بخار الماء النامية داخل السحاب.

---

(١) انظر: د/مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص١٦ن وانظر أيضًا: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٢٠٥.

وكذلك قيام الرياح بتوزيع الحرارة، وغير ذلك من حكمة الله في التسخير[١].

وقد فسر السلف الصالح قوله تعالى: ﴿وتصريف الرياح﴾ بأنها تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب، وتارة تأتي من اليمين، كما فسرها قوله تعالى: ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي: سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما شاء الله من الأراضي والأماكن كما يُصرفه تعالى.

وليس ثمة تعارض بين التفسير القديم والتفسير الحديث؛ وإنما التفسير الحديث للآية جاء في ضوء اكتشاف الحقائق الكونية التي توصل إليها العلم حديثًا فكان أكثر تفصيلًا وعمقًا.

تلك الحقائق عن الرياح أوجزها سبحانه في الآيات السابقة فجاءت معبرة خير تعبير عن وظيفة الرياح وفوائدها، وما كان يعلمها وقت نزول القرآن بهذا الوضوح إلا الله سبحانه وتعالى، فدل ذلك على أن القرآن منزَّل من عنده سبحانه.

٥- في شأن الذرة:

أخبرنا القرآن الكريم عن حقائق عن الذرة، وإن كان المعنى الحقيقي من تلك الآيات التي تناولت هذا الموضوع لم تفهم حق الفهم إلا في وقتنا المعاصر بعد أن كشف العلم أسرار الذرة. فالقرآن يخبرنا أن الذرة لها وزن أو ثقل في

(١) انظر: مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص١٦، وانظر أيضًا: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٢٠٥.

قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثال ذرة شرًّا يره﴾ بمعنى أن من يعمل خيرًا أو شرًّا قليلًا ولو في مثل وزن الذرة، فإن الله يجازيه أو يعاقبه عليه.

كما جاء في آيات القرآن الكريم إشارة إلى تفتت الذرة في قوله تعالى: ﴿وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾.

والذرة هي بناء ونظام أشبه بالنظام الشمسي في أنها تتألف من نواة تدور حولها الإلكترونات الصغيرة جدًا في أفلاك متعددة، وبين النواة والإلكترونات فضاء وخلاء، ويستحيل تقدير مكان الإلكترون في لحظة معينة إلا على وجه الاحتمال، وهو من فرط سرعته أشبه بسحابة تغلف النواة[1].

والإلكترون سالب الشحنة، وهو يستطيع أن يقذف من مداره إلى مدار داخلي أقرب إلى النواة أو إلى مدار خارجي مبتعدًا عنه. وهو بهذه الحركات يأخذ أو يعطي شحنة كهرومغناطيسية مقدارها فتون واحد، وتتوقف شحنة الفتون على المدار. (والفتون هو الوحدة العلمية للطاقة الضوئية).

ويستطيع الفنون أن يقفز سبع قفزات عبر سبع مستويات من الطاقة خارجًا من الذرة، وهو في أثناء ذلك يعطي السبع فوتونات التي تؤلف ضوء الشمس والنواة الموجبة للشحنة. والذرة تجمع بين النواة الموجبة والشحنة والإلكترونات السالبة، وهي بذلك تعتبر متعادلة. ولكن إذا انطلق الإلكترون هاربًا من ذرته فإن شحنة الذرة الموجبة تتراجع وتتحول إلى أيون موجب،

(١) د/مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص٩٢.

والحرارة الشديدة تحول الإلكترونات عن ذراتها إلى أيونات موجبة، وبذلك تنفرط الذرات إلى بلازما أولية[١].

وهكذا نجد القرآن منذ ما يزيد على الألف وأربعمائة سنة قد أشار إلى أن الذرة لها وزن، وأن هناك ما هو أصغر منها، وهو ما لم يصل إليه العلم إلا متأخرًا عندما كشف عن محتويات نواة الذرة، وقد حددها العلماء ما بين ٨ إلى ١٢ جسيمًا منها البروتون، والميزون، والبرتون المتعادل، والهيبيرون، والميزون والنيوترينو، والانتي نيوترينو، والبوزيترون وغيرها[٢].

ولقد سادت فكرة الذرات التي لا تنقسم حتى وقت قريب، منذ أن أعلن الفيلسوف ديمقراط سنة (٤٥٠ ق م) أن الكون يحتوي على عدد لا حصر له من الذرات أطلق عليها لفظ «أتوم» أي: الشيء الصغير الذي لا يتجزأ، كما اعتبر العالم «دالتين» سنة ١٨٠٢م أن الذرة كتلة صلبة من المادة تمثل أصغر شيء في الوجود؛ لأنها لا تنقسم، ثم اكتشف (كروكس) باستخدام أنابيب مفرغة تقريبًا أن ذرات الغاز المتبقي في الأنبوبة تنفصل منها جسيمات تحمل شحنات كهربية سالبة تتحرك بسرعة جبارة عند تسليط جهد كهربي على طرفي الأنبوبة. وقد تبين بعد ذلك أن هذه الجسيمات المتدفقة المسماة بأشعة المهبط ليست إلا سيلًا من الإلكترونات، وأن الإلكترونات جسم أصغر من الذرة. ثم في عام ١٩١١م ظهرت نظرية جديدة عن تركيب الذرة تؤكد أن الذرة تتكون

(١) د/مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص٩٤.

(٢) د/مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص٩٤.

من نواة موجبة الشحنة تدور حولها إلكترونات سالبة الشحنة[١]. تلك الحقيقة قد ذكرها القرآن منذ أربعة عشر قرنًا؛ فدلَّ هذا على أن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما هو منزل من عند الله.

٦- خلق الإنسان وأطوار تكوين الجنين:

يتضمن القرآن الكريم الحديث عن بداية خلق الإنسان، وعن أطوار تكوين الجنين في بطن أمه إلى أن يولد طفلًا ويشب في قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى. ثم نخرجكم طفلًا ثم لتبلغوا أشدكم. ومنكم من يتوفى. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾. وفي هذه الآية الكريمة يشير الله إلى كيفية نشأة الإنسان على سطح الأرض، فهو سبحانه بدأ بخلق آدم أبو البشرية، وهو أول إنسان ظهر على الأرض وقد خلقه الله من طين؛ قال تعالى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من روحه. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون﴾، وقال تعالى: ﴿خلق كل دابة من ماء﴾، وقال تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب﴾. والطين ما هو إلا تراب وماء. فعندما يصرح الله تعالى بأنه خلق آدم من طين أو من تراب، وأنه خلق كل دابة من ماء، ذلك الماء الذي جعل منه كل شيء حي، ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. فإن النتيجة واحدة؛ وهي أنه تعالى خلق آدم من طين الذي ما هو إلا تراب وماء، ثم نفخ فيه من روحه. فالروح من أمر الله، وهي

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٦٧.

سر الحياة في الجسد.

ولا عجب أن يخلق الإنسان من طين؛ فإن من الطين يخرج غذاء الإنسان الذي هو قوام حياته؛ فمنه تخرج النباتات والثمرات المختلفة التي يتغذى عليها الإنسان كما يتغذى عليها الحيوان والطير. وهما بدورهم غذاء للإنسان.

وعندما حللت العناصر التي يتكون منها الطين وجدوا أنها: الأكسجين، والمنجنيز، والكربون، والنيتروجين، والهيدروجين، والكالسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم، والكلور، والفلور، والحديد، واليود، والفسفور، والسليكون، والنحاس، والماغنسيوم. وهي ستة عشر عنصرًا. وقد حللوا جسم الإنسان فوجدوا أنه مكون من نفس العناصر الستة عشر مصداقًا لقوله تعالى[1]: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. ثم من آدم خلق الله حواء، ومنهما معًا خلق في الأرض نساء ورجالًا هم باقي البشر أولاد آدم الذين خلقوا ﴿من نطفة من مني يمنى﴾، ثم من علقة، ثم من ﴿مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾.

قال تعالى: ﴿ثم جعلنا نسله من سلالة من ماء مهين﴾. والماء المهين هو النطفة. وقد جاء في تفسير النطفة أنها الماء القليل، وهي هنا تعني ماء الرجل، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿من مني يمنى﴾. أما العلقة فهي قطعة جامدة من الدم، والمضغة قطعة من اللحم قدر ما يمضغها الإنسان. و«مخلقة» أي: مسواه لا عيب فيها، «وغير مخلقة» أي: معيبة أو بها عيوب خلقية[2].

---

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٢٤٣.

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٣ ص٧٣.

وقد جاء في التفسير أيضًا أن المني -وهو ماء الرجل- إذا استقر في رحم المرأة مكث أربعين يومًا، كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، ثم تمكث كذلك أربعين يومًا، ثم تستحيل فتصير مضغة؛ أي قطعة من اللحم لا شكل فيها، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس وبدن وصدر وبطن وفخذ ورجلان وسائر الأعضاء.

والنطفة تأتي في أكثر من عشرة مواضع في القرآن، وفي كل مرة تأتي بمشهد تفصيلي مختلف، كما يقول الدكتور مصطفى محمود: فهي ﴿نطفة أمشاج﴾ أي: أخلاط من صفات وخصائص متنوعة، وذلك ما نعرفه الآن بالجينات الوراثية.

ولقد ثبت علميًّا أن «السائل المنوي» يتكون من خليط من الإفرازات تأتي من غدد مختلفة وهي: الخصيتان، والحويصلات المنوية، والبروستاتا، والغدد الملحقة بالمسالك البولية(١).

ثم يأتينا القرآن بتفصيل أكثر من قوله تعالى: ﴿نطفة من مني يمنى﴾. النطفة المنوية هي التي تحدد جنس المولود إن كان ذكرًا أو أنثى؛ قال تعالى: ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾.

ثم تفصيل ثالث وهو أن هذه النطفة مقدرة بتركيبها هذا من الخالق؛ وليس شيئًا عشوائيًّا من تدبير الصدفة، فقال تعالى: ﴿من نطفة خلقه فقدره﴾.

ثم ينقلنا القرآن إلى مشهد مكاني في قوله تعالى: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٣٤٥.

مكين﴾ والمقصود الأرحام. ثم ينقلنا إلى مشهد زماني فيضع هذه النطفة في سياقها التاريخي، ويربطها ببدئها الأول السحيق من التراب: ﴿فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة﴾. ثم يعطينا تفصيلًا أكثر لما حدث في هذا السياق التاريخي أن النطفة كانت في البداية نطف غير جنسية تتكاثر بالانقسام الحضري بدون تزاوج، ثم تنوعت بعد ذلك إلى ذكر وأنثى، وظهر التكاثر التزاوجي، فقال تعالى: ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجًا﴾. فجعل الأزواج تأتي متأخرة بعد النطف مما يدل على أن النطف المقصودة هنا هي نطف أولية لم يتعين فيها ذكر أو أنثى، وهو ما يعرف بالتكاثر اللاتزاوجي Asexual Reproduction. ثم يحدثنا عن تسلسل النطفة ومراحل خلق الجنين في قوله: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾.

ثم ينقلنا إلى مشهد غيبي في قوله: ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾. ثم مشهد غيبي آخر[1]: ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا﴾. إن كل خلية ذكرًا كانت أو أنثى على كرموزمات Chromosomes وجينات Genes وحدات الوراثة. والكرموزمات تكون النوية (نواة صغيرة) التي تحتوي الجينة ١ والجينات هي العامل الرئيسي الحاسم فيما يكون عليه كل كائن حي أو إنسان. والسيتوبلازم Cytoplasm هي تلك التركيبات الكيماوية العجيبة التي تحيط بالاثنين، وتبلغ الجينات من الدقة درجة

(١) انظر: د/مصطفى محمود: «القرآن كائن حي» ص: ٦، ٩.

مكرسكوبية. وهي المسئولة عن المخلوقات البشرية جميعًا التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها. فهي المفاتيح المطلقة لخواص جميع البشر والحيوانات والنبات يقول «أ كريس مورسون»: لو جمعت جميع الجينات التي على الأرض ووضعت في مكان واحد لكان حجمها أقل من حجم «الكستبان». والكستبان الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر، وهو بلا ريب مكان صغير الحجم؛ ومع ذلك فإن هذه هي الحقيقة التي لا جدال فيها.

فهل هذه الجينات والسيتوبلازمات تحبس كل الصفات الوراثية لجمع من الأسلاف وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم، وفي مثل تلك المساحة الضئيلة؟ وما هو المحبوس هناك؟ هل هو كتاب تعليمات؟ هل هو صف من الذرات؟

إن الجنين Enbriy وهو يخلص في تطوره التاريخي من النطفة «البروتوبلازم» إلى الشبه الجنسي إنما يقص تاريخًا مسجلًا قد حفظ[1].

إن التطور التدريجي للجنين من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظام، ثم كساء تلك العظام لحمًا واكتماله طفلًا يحتاج إلى فترة من الزمن حتى يستقر كل تغير. وهي عملية هدفها بقاء الجنس وتشابهه، وهو يصل إلى درجة الكمال بحلول الروح. والله تعالى قد رتب ذلك ونظمه، وقد أشار إلى تلك المراحل إشارة دقيقة في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة

(١) انظر: أ. كريس موريسون: «العلم يدعو إلى الإيمان» تقديم د/أحمد حسن الباقوري، ترجمة/محمد صالح الفلكي، ص١٣٧.

عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. والآية القرآنية: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ يشير فيها الحق سبحانه إلى ظلمات ثلاث هي: جدار البطن، وجدار الرحم، وأغشية الجنين -حسب رأي بعض المفسرين(١). ويرى آخرون أن هذه الآية قد تشير إلى ظلمة المبيض، وقناة فالوب والرحم؛ لأنها تقع في مواقع متفرقة. أما تفسيرها بالبطن والرحم والمشيمة فهي تعتبر ظلمة واحدة لأنها في مكان واحد. والتفسير الثاني في رأيي أكثر دقة وأقرب إلى الصحة.

- فالظلمة الأولى: هي ظلمة المبيض الذي تتكون فيه البويضة داخل حويصلة.

- وظلمة البوق: أو قناة فالوب حيث تلقح البويضة بالحيوان المنوي.

- ثم ظلمة الرحم: الذي يتم فيه تخليق الجنين(٢).

وتلك المعلومات الدقيقة عن خلق الإنسان والجنين لم يتوصل إليها العلم إلا حديثًا مما يؤكد أن القرآن ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم(٣).

---

(١) د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص٣٤٦.

(٢) محمد أبو الفيض المنوفي: «القرآن والعلوم الحديثة» ص٥٥.

(٣) ذهب «دارون» في نظريته عن «النشوء والارتقاء» إلى أن أصل الإنسان قرد من فصائل السيما Simia وهي فصائل الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي، وتطور على مر العصور وصار على شكله الحالي. ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهانًا على أن الإنسان من نسل أسلاف سيمائية من القرود. وكما لا يستطيع أحد أن يزعم أن سمك القد Cod قد تطور من سمك الحساس Haddock وإن كان كليهما يسكن نفس المياه ويأكل نفس الطعام، ولهما

٧- في خلق الكائنات على الأرض:

جاء في القرآن الكيم إشارات إلى بداية خلق الكائنات الحية على الأرض؛ قال تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾. في هذه الآية الكريمة يحدثنا الله عن أصل الحياة على الأرض، وتلك مسألة تعتبر من الألغاز العلمية فيقول سبحانه إنه خلق كل دابة من ماء. وقد توصل العلم إلى أن «الأميبا» وهي مخلوق حي لا يرى إلا بالمكرسكوب

عظام تكاد تكون واحدة. إنما يعني ذلك ببساطة أنه في وقت ما عند بداية التكيف كان هناك ضرورة متوازنة لتنظيم كل من النوعين.

إنَّ العلم يشير إلى إبهام الإنسان وقدرتها على الإمساك بالآلات والأسلحة، ويعتبر ذلك أصلًا لتقدم الإنسان. وإن إبهام القرد التي لا نفع لها فهي برهان قاطع على أن إبهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إبهام القرد الذي يعيش على الأشجار وإبهامه متخصصة لهذه المعيشة؛ ذلك لأن الطبيعة لا تعيد أبدًا تيسيرًا قد فقد. والحصان الذي يجري الآن على أصبع شديدة التخصص لا يمكن أبدًا أن يستعيد تلك الأصابع التي فقدها على مر الزمن. وإن البحث عن الحلقة المفقودة بين القردة والإنسان سوف يتضح عبثه. وإن القائلين بنظرية التطور لم يكونوا يعلمون شيئًا عن وحدة الوراثة «الجينات» وقد وقفوا في مكانهم حيث بدأ التطور حقًّا؛ أي عند الخلية ذلك الكيان الذي يحتوي الجينات، ومعروف أن جميع الكائنات الحية منفصلة بعضها عن بعض بهوا سحيقة لا يمكن عبورها، ولقد حل الآن إلى الأبد لغز أيهما أسبق الدجاجة أم البيضة؟ أنه لم يكن هذا ولا تلك، بل جاءت قبلهما خلية أولية، والبيضة ليست إلا غذاء للجنين، وهي تحوى تلك الخلية الفريدة والحياة في كل مادة منظمة لها غرض محدد هو شجرة أو فيل أو إنسان في اتفاق تام مع خطة مرسومة مع الجينات، وهي تحفظ التصميم وسجل السلف والخواص التي لكل كائن. انظر: كريس: «العلم يدعو إلى الإيمان» ص١٤٢.

على درجة كبيرة من التطور، ومكون من ملايين لا عدد لها من الذرات في تنظيم مرتب. وإن الأميبات «مخلوقات ذوات خلية واحدة» قد لا يزيد قطرها على جزء من مائة من البوصة، وتوجد في جميع مياه العالم، «والأميبا» تشعر بالجوع وتبحث عن غذائها عن قصد. وإذا اتخذنا «الأميبا» مثلًا للإيضاح - دون أن نزعم أن هذا المخلوق الحي هو المنبع الأصلي للحياة ذوي الخلية الواحدة، فإنه يمكن القول أن مخلوقًا ما نطفيًّا «بروتوبلام» حسيًّا، بعد أن ضاعف تكوينه الداخلي قد انقسم وصار اثنين، ثم أربعة. وهكذا إلى غير حد كما تفعل الخلايا الآن في كل مخلوق حي. فكل خلية تحتوي في نفسها، في تقسيمها المبكر القدرة على إنتاج فرد كامل. والخلايا نفسها باقية إلا إذا وقع لها حادث أو صادفها تغير في الظروف لا قبل لها به.

وهي تكون الخلايا البسيطة في جميع المخلوقات من حيوانات أو نبات في الوقت الحاضر، وبهذا تكون صورًا طبق الأصل من أسلافها.

ونحن -بوصفنا كائنات بشرية- أمم منتظمة من بلايين فوق بلايين من أمثال تلك الخلايا.

وكل خلية هي مواطن يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة في ذكاء[1].

إنه بعد أن ثبت من أبحاث العلماء ولا سيما «باستور» وتجاربهم العلمية عدم تحمل الحياة الحيوانية والنباتية الحرارة الشديدة، واتضح عدم صدورها فورًا من تلقاء نفسها، صارت كيفية نشوء الحياة على الكرة الأرضية موضع

(١) انظر: أ. كريس مورسيون: «العلم يدعو إلى الإيمان» تقديم الشيخ حسن الباقوري، ترجمة/محمد صالح الفلكي، ص٩٦.

تأمل. فإن فرض انتقال عنصر الحياة إلى الأرض بواسطة النيازك التي انشقت لسبب ما من بعض الأجرام السماوية المكونة من قبل وظل مدة طويلة طائرًا في الجو. ثم نزل بتيار مساعد إلى سطح الماء، وهناك أحدث أول جرثومة تناسلت منها النباتات والحيوانات وتطورت، قد تحقق أخيرًا عدم إمكان هذا التصور أو هذا الغرض[١].

وقد تأخر ظهور الإنسان على الأرض فكان آخر المخلوقات التي ظهرت عليها بعد أن تم إعداد الأرض بالماء والنبات والحيوان والغلاف الجوي المناسب، وصدق الله تعالى بقوله: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾.

ودون أن نخوض في المحاولات العديدة التي قام بها العلماء لتفسير نشأة الحياة على الأرض، فإنه يمكننا أن نقول: إن كل تلك النتائج التي توصلوا إليها بشأن نشأة الكائنات على الأرض لا زالت في مرحلة الاحتمالات التي لا ترقى إلى اليقين، فالله وحده هو الذي يعلم كيف ومتى بالتحديد ظهرت الحياة على الأرض. أما دراسات العلماء فهي تعتمد على دراسة الحفريات القديمة والصخور باستخدام العناصر المشعة مثل «اليورانيوم» في تحديد عمر الأرض وعمر الكائنات عليها تحديدًا تقريبيًّا.

ومما لا ريب فيه أن الماء لعب دورًا هامًّا وأساسيًّا في وجود الحياة على

(١) المرجع السابق: ص٩٧.

الأرض، ولا زال يقوم بهذا الدور الخطير[١]، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا وكان ربك قديرًا﴾.

ويشير القرآن إلى حقيقة أخرى قد توصل إليها العلم المعاصر وهي تطور الكائنات الحية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارًا وقد خلقكم أطوارًا﴾.

وقد خلق الله تعالى من كل الكائنات في الوجود زوجين؛ قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ أي أن جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار[٢] -نهيك عن الحيوانات والنباتات، ولهذا قال تعالى: ﴿لعلكم تذكرون﴾ لتعلمون أن الخالق واحد لا شريك له.

وقد خلق الله كل شيء من ذكر وأنثى، فهما أصل التكاثر؛ قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾. تفكر في قوله تعالى: ﴿ومما لا يعلمون﴾ فهي قد تشير إلى ما يتوصل إليه علم الهندسة الوراثية من عمليات تهجين لإنتاج سلالات جديدة من الموجودات غير المعروفة لنا تحمل صفات وراثية من جنسين أو أكثر.

---

(١) الماء يدخل في تركيب كل خلية حية، وهو لازم لحدوث كل التفاعلات الحيوية، ويكون ٦٧٪ من كتلة أجسامنا.

(٢) انظر: د/منصور حسب النبي: «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» ص١٢٠.

وقد أشار الحق سبحانه في كتابه العزيز إلى أن النباتات منها الذكور ومنها الإناث، ويتم بينهما تزواج لتخرج الثمرات في قوله: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾. وقال تعالى أيضًا: ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى﴾. وأشار إلى هذه الحقيقة أيضًا في قوله تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾.

وقد جعل الله في عالم المخلوقات البقاء للأصلح[١]، وهو قانون طبيعي أشار إليه الله في قوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله الحق بالباطل. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾. وقد جاء في «تفسير ابن كثير» أن هذه الآية تبين الحق في ثباته وبقائه والباطل في اضمحلاله، فالباطل أو ما لا نفع للناس فيه أو الضعيف لا يمكث في الأرض؛ وإنما البقاء للأنفع وللأقوى وللحق؛ قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾. تلك الحقائق الكونية لم يكن يعرفها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وإنما هي مُنزلة من عند الله.

٨- قضية الكم في القرآن:

اهتم القرآن بقضية الكم موضحًا أن كل شيء في الوجود له كم ومقدار، وأن الأشياء لا يمكن أن تكون وجدت هكذا بالصدفة؛ قال تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾، وقال تعالى: ﴿وإن كل شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾. في تلك الآيات الكريمة يبين الله لعباده أن كل شيء في الكون قد وجد بقدر معلوم وبمقدار مقنن، وفي وقت محدد، ولا شيء بالصدفة؛ لأن

(١) انظر: د/مصطفى محمود: «من أسرار القرآن» ص٢٥.

الصدفة لا يمكن أن تعطينا تلك النتائج الدقيقة المنضبطة بطريقة مبهرة في كل مرة، وفي كل موجود. إن مخلوقات الله عديدة يصعب حصرها. أي صدفة عجيبة استطاعت أن تجعلها جميعًا على هذا النظام وبتلك الدقة. إن الصدفة قد تحدث في شيء واحد أو اثنين أو ثلاثة. وأما أن تحدث في كل ما حولنا من أشياء فهذا هراء.

يقول أحد المفكرين(١): خذ عشر بنسات كل على حدة، وضع عليها أرقام مسلسلة من واحد إلى عشرة، ثم ضعها في جيبك وهزها هزًّا شديدًا، ثم حاول أن تسحبها حسب ترتيبها من ١ إلى ١٠ تجد أن فرصة سحب البنس رقم واحد هي نسبة ١ إلى ١٠ وفرصة سحب رقم ١، ٢ متتابعين هي ١، ١٠٠، وفرصة نسبة سحب البنسات ١، ٢، ٣ متوالية هي بنسبة ١ إلى ١٠٠٠. وفرصة سحب ١، ٢، ٣، ٤ متوالية هي نسبة ١ إلى ١٠٠٠٠، وهكذا حتى تصبح نسبة سحب البنسات العشرة متتالية بترتيبها الأول هي نسبة ١ إلى ١٠ بلايين(٢).

والفرض من هذا المثال هو أن نبين كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد الصدفة. فإذا عدنا إلى قول الله تعالى: ﴿كل شيء خلقناه بقدر﴾ وبدأنا بالكرة الأرضية. يوضح العلم أن الكرة الأرضية لو كانت أكبر مما هي عليه أو أصغر. أو لو أن سرعتها كانت أزيد مما هي عليه، أو لو كانت المسافة بينها وبين الشمس أقرب أو أبعد مما هي عليه لكان لذلك كله أثره الهائل في الحياة من كل نوع بما فيها حياة الإنسان. ولما أمكن وجود الحياة عليها، فالكرة الأرضية من

(١) كريس موريسون: «العلم يدعو إلى لإيمان» ص٤٩.
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

بين الكواكب السيارة فيما نعلم حتى الآن هي الكوكب الوحيد الذي كانت صلته بالشمس سببًا في جعل الحياة ممكنة عليها.

والكرة الأرضية تدور حول محورها مرة كل أربعة وعشرين ساعة بمعدل ألف ميل في الساعة، والآن إذا فرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة عندئذ يكون الليل والنهار أطول مما هما عليه عشر مرات. وفي هذه الحالة ستحرق شمس الصيف الحارة النباتات في كل نهار، وفي الليل قد يتجمد كل نبت في الأرض. إن الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها ١٢,٠٠٠ درجة فهرنهيت، والكرة الأرضية بعيدة عنها بقدر يكفي لأن تمدنا بالدفء الكافي ولا بأكثر منه، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب. ولكن تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة. ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة لمدة سنة واحدة لمات الإنسان والنبات والحيوان حرقًا. ولو أن الشمس أعطت نصف أشعتها الحالية لكنا تجمدنا. والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل ثمانية عشر ميلًا في الثانية. ولو أن معدل دورانها كان مثلًا ست أميال أو أربعين ميلًا في الثانية، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث تمتنع معه الحياة. إن الكرة الأرضية مائلة بزاوية ٢٣ درجة، ولهذا دواعي دعت إليه، فلولا هذا الميل بنفس الدرجة لكان القطبان في حالة غسق دائم، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالًا وجنوبًا، مكدسًا في طريقه قارات من

الجليد[١].

ولو أطلنا القول في ذلك ما انتهينا، فبيان ذلك يحتاج إلى صفحات وصفحات، فلا شك أن جميع أجهزة الإنسان تعمل بقدر، فعدد دقات قلبه ونبضة وضط دمه ودورته الدموية وغيرها كلها بقدر مقنن. وعمر الجنين في بطن أمه، وعمر النبات في الأرض حتى ينضج، ونسبة الأكسجين في الهواء الجوي، والهيدروجين وثاني أكسيد الكربون -كل ذلك مقدر بنسب محددة غاية في الدقة والانضباط ويسبب النقص أو الزيادة في نسبها إلى أخطار مدمرة. ومن التضليل الواضح أن نقول: إن كل هذا التنظيم وتلك الدقة نتيجة الصدفة أنه تقدير العزيز الحكيم، وهو قول يتحدى العلوم الرياضية، وصدق الله في قوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

كما يوضح الله في كتابه العزيز أن النباتات أيضًا مركبة من مواد محسوبة ونسب مقدرة بقدر معلوم وموزون في قوله تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾.

وأشار القرآن أيضًا إلى أن كل شيء خلقه الله بمقدار في قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، وقوله تعالى: ﴿وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾. تلك الحقيقة المؤكدة التي توصل إليها العلماء المعاصرون الذين أثبتوا بطريق لا يدع مجالًا للشك أن كل شيء في الوجود من أكبر كبيرة إلى أصغر صغيرة خاضع في وجوده لنسب

(١) أ. كريس موريسون: «العلم يدعو إلى الإيمان» تقديم د/حسن الباقوري، ترجمة/محمد صالح الفلكي ص٤٩.

ومقادير معينة ومحددة لا مجال فيها للصدفة أو العشوائية. أقول: إن تلك الحقيقة لم تكن معروفة قبل نزول القرآن، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف عنها شيء، فدل ذلك على أن القرآن منزل من عند الله.

٩- في وسائل المعرفة:

يعرض القرآن إلى أدوات المعرفة الإنسانية في قوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. فالطفل يولد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ثم يبدأ في تكوين المعارف وتكوين أداته الأولى أداة حسية تتمثل في السمع والبصر. ثم بعد ذلك تأتي المعارف العقلية، والتي عبر عنها سبحانه بالأفئدة.

ويقول الإمام «محمد متولي الشعراوي» في شرح هذه الآية: إنَّ مراحل التعليم تبدأ بالإدراك الحسي؛ فالطفل يدرك الأشياء المحسة، ثم تتراكم الأشياء المحسة فيكون فيها معلومات عقلية، فنجد القرآن يقول: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾. وهي هنا مرتبة ترتيبًا كالواقع تمامًا. فالقرآن كلما ذكر السمع والبصر، يذكرهما بنفس الترتيب السمع أولًا ثم البصر(١).

فالطفل عندما يولد تكون أول حاسة من حواسه تؤدي وظيفتها هي

---

(١) ذكر البصر قبل السمع في آية واحدة وهي: {ربنا أبصرنا وسمعنا} وهي تتحدث عن يوم القيامة، ويقول الإمام الشعراوي: لأن يوم القيامة سنرى أولًا ثم نسمع ثانيًا، فيكون منطقيًّا مع وقته.

انظر: «هذا هو الإسلام» ص١٤٧.

الأذن، ثم بعد ذلك العين تؤدي مهمتها في ظرف عشرة أيام ... فبينما يتحدث الحق عن السمع والبصر يكون قد دل على أن السمع يؤدي مهمته أولًا، وبعد ذلك البصر يؤدي مهمته ثانيًا. وبعد ذلك تتكون المعلومات القلبية والعقلية بعد ذلك بلا شذوذ في أي شيء[١].

وتلك إشارة من الله تعالى إلى وسائل المعرفة الحسية والعقلية والحدس القلبي. وتلك حقائق لا يعرفها محمد صلى الله عليه وسلم؛ وإنما عُرفت حديثًا بعد أن استطاع العلم الوقوف على وظائف الأعضاء. وهذا دليل على أن خالق الإنسان الذي يعلم عنه كل شيء هو منزل القرآن.

ويطلعنا القرآن على حقيقة أخرى وهي أن جلد الإنسان هو أقوى حواس الإنسان بالمقارنة بوسائل الحس الأخرى؛ فالأذن لا تستقبل أكثر من ثمانية عشر مؤثرًا، وإذا زادت المؤثرات تختلط الأصوات ولا تتمايز. والعين لا تميز أكثر من ثمانية عشر مرئيًّا، فإذا زادت عن ثمانية عشر مرئيًّا تختلط عليها. لكن السنتمتر من جلد الإنسان يستقبل ثمانمائة مؤثر مختلفة ويحس بها، ولذلك فإنَّ الكفار كي ينالوا الجزاء الرادع من العقاب تحرق جلودهم، ثم كلما نضجت جلودهم بَدَّلهم الله غيرها؛ وذلك لأن مناط الحس الأصيل في الإنسان هو الجلد. وهذا يتفق مع الحقائق العلمية[٢]؛ قال تعالى معبرًا عن ذلك: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب﴾.

---

(١) المرجع السابق: ص١٤٨. وفي هذا المرجع حديث مطول عن السمع والبصر في القرآن. انظر: ص: ١٤٥ إلى ص١٤٨.

(٢) «هذا هو الإسلام» ص١٥١.

وتلك الحقيقة العلمية لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يدري عنها شيئًا، إنما أثبتها العلماء حديثًا، وهذا دليل على أن القرآن منزل.

وأشار القرآن الكريم إلى حقيقة تخص أطراف الإنسان؛ وهي أن التكوين الخلقي لكل طرف من أطراف أصابع الإنسان بصمة خاصة وسواه يختلف بشكل خاص عن مثيله عند غيره من الناس؛ بل ويختلف طرف كل أصبع في يد الإنسان في شكله عن غيره من الأصابع في نفس اليد، فليس هناك طرف أصبع عند إنسان يشبه غيره من الأطراف، ولذلك اتخذت بصمات أنامل الإنسان كدليل يستدل به على شخصية صاحبه؛ لأنه لا يشاركه فيه أحد قط؛ قال تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾. فالحق تعالى قادر على أن يعيد الخلق من جديد يوم البعث، بل إنه سبحانه قادر على أن يسوي بنان الإنسان بنفس الشكل الذي كان عليه قبل موته. وذلك عند بعثه ثانية يوم القيامة.

وقد فسر ابن قتيبة والزجاج هذه الآية بقولهما: أي يظن الإنسان أنَّا لا نجمع عظامه! بل سنجمعها وقادرين على أن نسوي بنانه فنجعل بنانه -وهي أطراف أصابعه- مستوية؛ أي تعود على ما كانت عليه[1].

وتلك حكمة بالغة من الله في جعل أطراف بني الإنسان غير متشابهة، والإشارة إليها في القرآن الكريم دليل على أن خالق الإنسان هو الذي أنزله على النبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٢٧٦.

١٠- في شأن الأنهار والبحار:

أشار القرآن الكريم إلى حقيقة هامة في قوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾، وقال تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قرارًا وجعل خلالها أنهارًا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزًا أأله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

هذه الآيات الكريمة يشير فيها الله جل شأنه إلى ظاهرة عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح عند الالتقاء الحادث بين مصبات الأنهار وشواطئ البحار، لدرجة أن اختلاط المياه لا يتم أحيانًا إلا في عرض البحر ويظل نوعا الماء منفصلين لمسافة طويلة وكأن بينهما حد فاصل. ويرجع ذلك إلى ظاهرة تسمى «قوة التوتر السطحي» الناشئة عن اختلاف التجاذب بين جزئيات الماء العذب والماء المالح لاختلاف كثافتيهما. فيبدو لنا بوضوح الحد الفاصل بينهما. كما يشير القرآن في وصف تلك الظاهرة. فحديث الحق سبحانه عن «البرزخ» أو الحاجز الذي يفصل بين المياه العذبة والمياه المالحة هو ما يسميه العلماء «قوة التوتر السطحي».

وقد جاء في «تفسير ابن كثير» عن ابن عباس: إن الله خلق الماء من الحلو والمالح؛ فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، والمالح كماء البحار المعروفة في المشارق والمغارب والبحر المحيط ... إلخ.

والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمة عليهم ليشكروه؛ فالبحر العذب فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا أو عيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم. وقوله

تعالى: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي: مالح مر زعاق لا يستساغ في البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الريح. ومنها ما له مد ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى. فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا، وميتتها طيبة. ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سُئل عن ماء البحر فقال: **«هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته»**[١].

١٠- كما يرى البعض في قوله تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ أن تلك الآية تشير إلى قاعدة هندسية؛ وهي أن الشكل المثلث لا ظل له[٢].

١٢- كذلك حدثنا القرآن الكريم عن أهمية التخصص العلمي وأهمية استشارة أهل الرأي والمشورة في الأمور المختلفة في قوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾.

١٣- ويصف القرآن الواقع الاجتماعي للإنسان في قوله تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. وهذه حقيقة واقعة فعلًا، فكثيرًا ما يحدث للإنسان أمور يحسبها

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص٦٣٥.

(٢) انظر: مقدمة كتاب السيوطي: «الإكليل في استنباط التنزيل» تحقيق/سيف الدين عبد القادر، ص١٦.

خيرًا فتجلب له الشر وتكون فاتحة الشقاء والتعاسة، فتكون في ظاهرها الخير وفي حقيقة الأمر هي شر مستتر. وقد يحدث العكس، فعلى الإنسان التروي في الحكم على الأشياء، وعدم الأخذ بالظاهر والتسرع بالأحكام السطحية.

١٤- من حكمة الله تعالى وجود أكثر من قوة كبرى في العالم، فوجود قوة واحدة كبرى من البشر تسيطر على العالم ليس فيه مصلحتهم لأنها قد تبطش بغيرها وتتحكم فيهم، ولذلك فإن الله سبحانه يجعل في تعدد القوى الكبرى في العالم حدًّا للطغيان والبغي والسيطرة من جانب إحداها؛ إذ إن القوى الأخرى لن تسمح لها بغرض نفوذها والتصرف في العالم كما يحلو لها، وإنما ستقف لها بالمرصاد؛ وينتج عن ذلك نوع من التوازن الذي يؤدي بدوره إلى نوع من الاستقرار وعدم الإفساد في الأرض؛ قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

وقد جاء في «تفسير ابن كثير»[١] لهذه الآية أنه لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين لهلكوا كما قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا﴾. وهذا تصوير دقيق من الحق سبحانه للواقع الذي تحياه الشعوب والأمم في الأرض، وما جعله سبحانه بين القوى الكبرى من توازن حتى لا تنفرد واحدة بالعالم فتفسد فيه وتهدم وتطغى.

تلك بعض الأمثلة من القرآن الكريم تتناول الواقع وتكشف أسرار الكون، وقد ذكرتها على سبيل المثال لا الحصر، فمن يريد المزيد في هذا الأمر

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٢٢٦.

فليرجع إلى كتاب الدكتور منصور حسب النبي «الكون والإعجاز العلمي للقرآن» وغيره من الكتب التي تناولت هذا الموضوع، ولا شك أنها جميعًا تحمل من آيات القرآن الكريم ما يدل دلالة واضحة على أن القرآن منزل من عند الله سبحانه وتعالى. كما سنتبين معا الآن أن القرآن مخاطبة من الله سبحانه لرسوله الكريم فيه مناجاة من الله لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وفيه إخبار له بما يجري حوله من الأحداث، كما جاء فيه عتاب من الله تعالى لرسوله وإجابة على أسئلة السائلين والمستفسرين عن أمور الدين والعقيدة وغيرها مما سنفصل القول فيه. وهو منهج وأسلوب للكتابة لم يعتاده الكتاب في تصنيف مؤلفاتهم؛ وإنما أسلوب القرآن فريد في نوعه وفي عرضه، وقد جرت آياته على طريقة لم تعرف من قبله ولا من بعده.

٥- ما جاء في القرآن من مخاطبة الله لرسوله وحيًا:

من البراهين الدالة أيضًا على أن القرآن منزل من عند الله تعالى الآيات القرآنية العديدة التي يتوجه فيها الحق سبحانه بالحديث إلى نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فهو سبحانه يجيبه على أسئلة السائلين في أمور الدين والدنيا، ولذا تبدأ الكثير من الآيات بقوله تعالى: ﴿ويسألونك﴾ أو ﴿يستفتونك﴾. كما أن هناك من الآيات ما يخبر فيه الحق سبحانه رسوله عن أحداث بعينها تجري حوله وهو لا يعلم عنها شيئًا، أو أحداث ستحدث مستقبلًا. كما تحمل الكثير من الآيات مناجاة من الله تعالى لرسوله، أو لوم له أو عتاب. وتلك طريقة في الكتابة لم نعتادها؛ فالمؤلف لمصنف من المصنفات أيًّا كان موضوعه لا يلوم نفسه ولا يعاقبها ولا يسألها ولا يثني على نفسه أو

يشفق عليها، مثل قوله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. فدل ذلك على أن القرآن موحى به من الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ويسألونك﴾ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾. فقد روى ابن مسعود: أن اليهود سألوا الرسول عن الروح، فذكر تلك الآية فقالوا: مَن جاءك بهذا؟ قال: **«جاءني به جبريل من عند الله»**. فقالوا له: واللهِ ما قاله لك إلا عدونا[1]. فأنزل الله قوله: ﴿قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقًا لما بين يديه﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾، وقوله تعالى: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾، وقوله تعالى: ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾، وقوله تعالى: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين﴾، وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾، وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم، قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾، وقال تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين، قل سأتلوا عليكم منه ذكرًا﴾.

---

(١) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج٢ ص: ٣٩٧، ٣٩٨.

ومن الآيات التي تبدأ بـ«يستفتونك» قوله تعالى: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة[١] إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾.

ومن الآيات التي يسري فيها الله تعالى عن رسوله قوله تعالى: ﴿قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا. ولا مبدل لكلمات الله. ولقد جاءك من نبأ المرسلين. وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. فلا تكونن من الجاهلين﴾.

وفي هذه الآيات يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم مواسيًا له في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه فيقول له: إنهم يعلمون صدقك ولا يكذبونك؛ ولكنهم يجحدون آيات الله يعاندون الحق. وقد ورد في «تفسير ابن كثير»: أن «الأخنس»[٢] جاء أبا جهل فخلا به وقال له: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمدٍ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا. فقال أبو جهل: «ويحك! واللهِ إن محمدًا لصادق، ما كذب قطُّ؛ ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟»[٣].

---

(١) الكلالة: تعني مَن لا ولد له، وهلك تعني مات، وتلك الآية تحمل إجابة لسؤال سأله أحد الصحابة للرسول له سبع أخوات ولم يكن له ولد، فأراد أن يعرف حكم الشرع في وصيته لإخوته فيما يترك من ميراث. انظر: النيسابوري: «أسباب النزول» ص١٣٨.

(٢) هو الأخنس بن شريف، وكان من كفار قريش في ذلك الوقت.

(٣) النيسابوري: «أسباب النزول» ص١٣٨.

ويخفف الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم فيخبره أن الرسل من قبله قد كذبهم قومهم، ثم يعده بالنصر كما نصر من سبقه من الرسل، ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾، ثم يقول له: وإن شق عليك يا محمد إعراض قريش عنك فإن استطعت فشق لهم نفقًا في الأرض أو اجعل لك سلمًا تصعد عليها في السماء وتأتيهم بآية حتى يصدقوك. فإن كنت بقادر على عمل ذلك فافعل. واعلم أنه لو شاء الله لآمن من في الأرض جميعًا، فلا تكون يا محمد من الجاهلين.

ومن تلك الآية الكريمة يتضح بجلاء أن الرسول الكريم لا يخاطب نفسه، وإنما الذي يخاطبه ربه وهو الذي أنزل عليه القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا﴾.

وقال تعالى في نفس الآية: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا، واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا ولا تجادل في الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيمًا﴾.

في هذه الآيات الكريمة يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة واقعة كانت قد حدثت ونقلت إليه خطأ، فكاد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحكم فيها على ضوء ما نقل إليه من رؤية غير صحيحة، لولا أن نبهه ربه على حقيقة ما حدث وأوضح له تعالى أنهم كادوا يضلونه عن الحق، وما يضلون إلا أنفسهم.

وقد روى الترمذي وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه قصة جاء بها أنه

كان أهل بيت يقال لهم (بنو أبيرق) قد سرقوا درعًا يخص رفاعة بن زيد، كما سرقوا طعامه، فذهب قتادة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمد إلى عمي (رفاعة بن زيد) فقبعوا مشربًا له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«سآمر في ذلك»**. فلما سمع بذلك (بنو أبيرق) أتوا رجلًا منهم يقال له: أسيد بن عروة، فكلموه في ذلك فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فكلمته، فقال: **«عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟!»**. قال: فرجعت ولوددت أني أخرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى قتادة ما حدث من الرسول لعمه، فقال له: الله المستعان. فلم يلبثوا أن نزلت هذه الآيات: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾ يعني: بني أبيرق، ﴿واستغفر الله﴾ أي: مما قلتَ لقتادة. وقوله تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيمًا﴾. في هذا عتاب من الله لرسوله أنه جادل ودافع عن (بني أبيرق) دون أن يتأكد من صدق قولهم وعدم إدانتهم.

وكان (طعمة بن أبيرق) سارق الدرع قد علم بافتضاح أمره فألقى بالدرع في بيت رجل بريء وقال لنفرٍ من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده. فانطلقوا إلى النبي ليلًا، وقالوا له: إن صاحبنا بريء، وإن سارق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علمًا، فاعذر صاحبنا على رءوس الناس

وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرأه وعذره على رءوس الناس؛ فنزل قوله تعالى: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرم به بريئًا فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا﴾.

فقد أخبر الله سبحانه رسوله بحقيقة ما حدث بعد أن كاد (بنو أبيرق) أن يضلوه، فعلمه الله ما لم يكن يعلم حتى لا يظلم البريء ويبرئ الظالم، وبذلك كان فضل الله عظيمًا على رسوله(١).

ويتضح من ذلك وأمثاله مما جاء في آيات القرآن الكريم أن الله تعالى كثيرًا ما كان يعلم رسوله بحقيقة ما يحدث حوله حتى لا يضله كاذب أو ظالم، وفي ذلك دلالة قوية على أن القرآن منزل من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا. إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا تجد لك علينا نصيرًا. وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها. وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلًا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلًا﴾.

في هذه الآيات يخبر الحق تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتأييده وتثبيته وعصمته من شر الأشرار وكيد الفجار. وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ج١ ص: ٤٣٢ إلى ٤٣٥.

اليهود حين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقًا أنك نبي فالحق بالشام؛ فإن الشام هي أرض المحشر وأرض الأنبياء. فغزوا غزوة (تبوك) لا يريد إلا الشام، فلما بلغ (تبوك) أنزل الله عليه: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث(١).

وقوله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك، ثم لا تجد لك به علينا وكيلًا﴾. في تلك الآيات يذكر الله نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وفي أول الآية يقول الله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ ولنمحونه من الصدور والسطور، ثم لا تجد من يتوكل لك في استرداده منا إلا رحمة منا(٢).

وواضح أن القرآن لو كان من عند محمد ما جاء به مثل هذا الخطاب الشديد اللهجة، فما الداعي لمؤلف كتاب أن يخاطب نفسه بهذا؟! فدل ذلك على أن الذي يخاطبه سيده ومولاه بواسطة جبريل الذي كلفه الله بذلك.

وقال تعالى مخاطبًا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته. والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾.

وقال تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن

---

(١) أخرجه البيهقي عن عبد الله بن غنم: قال ابن كثير: وفي إسناده نظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم غزا تبوك عن أمر الله، لا عن أمر اليهود. انظر: «تفسير ابن كثير» ج٢ ص٣٩٠.

(٢) انظر: ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٥٤٣.

تخشاه﴾. وفي الآيات السابقة يأمر الله رسوله أن يبلغ الناس جميع ما أنزل اليه. وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم قيام.

وقد قال «البخاري» في تفسير هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كاتم شيء من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾[١].

ومن عصمة الله لرسوله أنه حفظه من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضاء ونصب المحارب له ليلًا ونهارًا، وفي قوله تعالى: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ إجابة من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حينما قال له: يا رب، كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون عليَّ؟[٢]

قال مجاهد: فنزلت عليه هذه الآية، وهي تعني: بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يحرس، كما قال الإمام أحمد، عن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سهر ذات ليلة وهي إلى جانبه قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: **«ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة»**. قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: **«من هذا؟»**. فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: **«ما جاء بك؟»**. قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) ابن كثير: «تفسير القرآن العظيم» ج١ ص٥٣٤.

في نومه. «أخرجاه في الصحيحين». وعندما نزلت عليه هذه الآية قال: **«أيها الناس، انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل»**[١].

وهذا العمل من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم يدل دلالة قاطعة على أن القرآن قد أوحي إليه من ربه؛ إذ لو كان هو الذي وضع القرآن وخدع كل الناس، فإنه لن يخدع نفسه ويصرف حراسه ويعرض نفسه لفتك الأعداء المتربصين به.

وكثيرًا ما كان الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يجتهد في المسائل الفقهية، فإذا صح اجتهاده أوحى الله إليه بصحته، وإذا أخطأ أوحى الله إليه بالصواب؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾. وتحكي هذه الآية قصة «خولة بنت ثعلبة» التي ذهبت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تشتكي زوجها «أوس بن الصامت» وهي تقول: «يا رسول الله، أكل مالي وأفني شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني (أي حلف عليها بالظهار قائلًا: أنت عليَّ كظهر أمي)». فما كان من الرسول إلا أن قال لها: إنك محرَّمة عليه.

وجادلته المرأة في ذلك فقال لها: **«يا خولة، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه»**. فقالت المرأة: اللّهم إني أشكو إليك. فما برحتْ حتى نزل جبريل بحكم

(١) «شرح الكرماني» ١٥: ٧٠، «فتح الباري» لابن حجر ٧: ١١٧، «عمدة القارئ» للعيني ٨: ٤٥، «شرح القسطلاني» ٧: ١٧٨، «صحيح البخاري» (كتاب المناقب).

الله في الظهار[١] في قوله تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا. فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا ذلك ليؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾.

وفي هذه الآية تصحيح لحكم الظهار من الله تعالى لرسوله.

وقوله تعالى معاتبًا الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾.

روتْ عائشةُ رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فدخل على حفصة بنت عمر واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فعرفت فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت منه رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة، قلت: أما واللهِ لنحتال له. فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك إذ دخل عليك فقولي له: يا رسول الله، أكلت مغافير؟! فإنه سيقول لكِ: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست نحله العرفط، وسأقولُ ذلك، وقولي له يا صفية ذلك. قالت: تقول سودة: فواللهِ ما هو إلا أن قام على الباب، فكدت أن أبادئه بما أمرتني به، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: «**لا**». قلت: فما هذا الريح التي أجد منك؟ قال: «**سقتني حفصة شربة عسل**». قالت: جرست نحله العرفط. قالت (أي

(١) انظر مزيدًا من التفاصيل في هذه الواقعة في «تفسير ابن كثير» ج٣ ص٤٥٨.

عائشة): فلما دخل عليَّ قلت له مثل ذلك، فلما دار على حفصة قالت: يا رسول الله، أسقيك منه؟ قال: **«لا حاجة لي فيه»**. تقول سودة: سبحان الله! لقد حرمناه. قالت لها (أي عائشة): اسكتي[1]. (رواه البخاري ومسلم).

وكان الرسول حريص كل الحرص على أن يكون نظيف البدن والثياب، طيب الرائحة، حتى إذا جلس إلى الناس وتحدث إليهم في أمور الدين لا يشم منه أحدهم ريحًا خبيثًا، فلما علم من زوجاته أن العسل يُغيِّر من رائحة فمه حَرَّمه على نفسه وامتنع عن أكله، فنزلت عليه هذه الآية، وأعلمه الله حقيقة ما حدثَ؛ فأخبر به عائشة فقالت له: مَن أنبأك هذا؟ قال: **«نبأني العليم الخبير»**. فآلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسائه شهرًا، فأنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾[2].

ويقول الله معاتبًا رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى﴾. في هذه الآية يلوم الحق سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم على ما حدث منه تجاه (ابن أم مكتوم) وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم وهو يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأبيًّا وأمية ابني خلف، ويدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم، فقام (ابنُ أم مكتوم) وقال: يا رسول الله، علمني ما علمك الله. وجعل يناديه ويكرر النداء، وكان كفيفَ البصر، وهو لا يدري أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم مشتغل ومُقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهةُ في وجه رسول الله صلى الله

(١) انظر: النيسابوري: «أسباب النزول» ص٣٢٥.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

عليه وسلم لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد. فعبس رسول الله، وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه بعد ذلك يقول: **«مرحبًا بمَنْ عاتبني فيه ربي»**(١). وهذا دليلٌ على أن القرآن منزل.

كما عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾. هذه الآية نزلت بعد حرب «بدر» حيث أسر المسلمون سبعين رجلًا من الكفار. وقد روى مجاهد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار أبا بكر في شأن الأسرى فقال: قومك وعشيرتك خلِّ سبيلهم. واستشار عُمر فقال: اقتلهم. ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال عمر بن الخطاب: غدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو قاعد وأبو بكر يبكيان. فقلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ، فَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، وأنزل الله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يكون له أسرى...﴾ إلى قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم (من الفداء) عذاب عظيم﴾ الآية»**(٢). وذلك يوضح أن الرسول كان له أسرى للمرة الأولى فاستشار أصحابه في

(١) انظر: أبو الحسن النيسابوري: «أسباب النزول» ص٣٣٢.

(٢) النيسابوري: «أسباب النزول» ص٣٣٢.

أمرهم فعرضوا عليه عدة آراء، ورأى النبي أن يفديهم، فأخذ منهم الفدية وأطلقهم؛ غير أن الله تعالى عاتب رسوله على أنه أخذ الفدية، وهذا دليل جديد على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يتصرف من عنده، وإنما يأمره الله الذي يوحي إليه القرآن، وهو الذي يعدل له سلوكه أو اجتهاده إذا لم يكن مصيبًا.

- كذلك عاتب الله رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾. نزلت هذه الآية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يحذره من (أبي سفيان) و(عكرمة بن أبي جهل) و(أبي الأعور السلمي) وقد قدموا المدينة بعد موقعة (أُحُد) فنزلوا على عبد الله بن أُبي، وقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن أبي سرح، وطعمة بن أبيرق، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم - وكان عنده عمر بن الخطاب-: اذكر آلهتنا (اللات والعزة ومناة) وقل: إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها، وندعك وربك! فشق على النبي صلى الله عليه وسلم قولهم. فقال عمر: ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم. فقال: «**إني قد أعطيتهم الأمان**». فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجهم من المدينة؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية في هؤلاء الكفار الذين يطلبون منه الاعتراف بآلهتهم على أن يتركوه وشأنه ينشر دين الإسلام دون التعرض[1] له. وهذا يدل دلالة واضحة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى القرآن وحيًا من عند الله.

---

(١) أبو الحسن النيسابوري: «أسباب النزول» ص٢٦٣.

- كذلك يعدل الله للرسول صلى الله عليه وسلم سلوكه في قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾. وقد نزلت هذه الآية في زيد بن حارثة؛ كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه قبل الوحي، فلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم (زينب بنت جحش) وكانت زوجة سابقة لزيد بن حارثة، فقال اليهود والمنافقون: تزوج محمدٌ امرأة ابنه؛ وهو ينهى الناسَ عنها! فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

- وكثيرًا ما كان الله سبحانه يبين للرسول أحوال المنافقين حتى يتبينهم ويأخذ حذره منهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿عفى الله عنك لما أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكافرين﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم﴾.

- وهناك من الآيات التي يحث فيها الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الزهد في الحياة الدنيا والإعداد للحياة الآخرة مثل قوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعدو عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا﴾. تلك الآيات السالفة الذكر تعطينا أدلة جديدة على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن وحيًا من عند الله، فليس من عادة المؤلفين للكتب أن ينتهجوا هذا المنهج في الكتابة؛ وإنما هو كما ترى حوار بين الله ورسوله، وعلينا أن ننظر بعين البصيرة حتى ندرك الحق، وعلى المستشرقين وأتباعهم ممن يسيروا على نهجهم في التحامل على الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم أن يكونوا أكثر موضوعية وإنصافًا.

---

(١) المرجع السابق: ص٢٦٥.

خاتمة

نستطيع أن نتبين من خلال هذا البحث النتائج التالية:

١- تعرض الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم لهجوم شرس من المستشرقين، وكان لهم أغراضهم المتعددة والمكشوفة، ولم يراعوا في ذلك أصول البحث العلمي الموضوعي في عرض الحقائق بعيدًا عن الأغراض والمصالح الشخصية.

٢- كان هناك نخبة من المستشرقين الذين عرضوا الإسلام دون تشويه أو تجنى واعترفوا أنه من عند الله.

٣- مَن يدرس حياة الرسول ويدقق في البحث التاريخي يجد أن مزاعم المستشرقين متهافتة وبعيدة كل البعد عن الصحة.

٤- كان محمد صلى الله عليه وسلم يُلقب في قومه بالصادق الأمين حتى نزل عليه القرآن فتحول في نظرهم فجأة إلى مدع كاذب.

٥- إن إصرار النبي صلى الله عليه وسلم على مواصلة الكفاح وتحمل أذى الكفار فيه برهان أكيد على صدق دعوته، وكذلك ثقته التامة في نصر الله له رغم قسوة الظروف المحيطة به وضعفه وقلة عدد أتباعه وعُدته وهوانه على قومه.

٦- إن في رفض الرسول صلى الله عليه وسلم لكل أنواع المغريات

والمساومات من أجل ترك دينه لدليل على صدق نبوته؛ فهو لم يكن يطمع في عرض من أعراض الحياة الدنيا؛ وإنما هو مبلغ رسالة ربه حتى ولو كان في ذلك مشقة بالغة وجهاد كلَّفه معاناة هو وأهل بيته طوال حياته.

٧- إن إيمان الصحابة وإيمان السيدة خديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم بما دعاهم إليه من عبادة الله الواحد، وتضحيتهم في سبيل نشر الإسلام بكل ما يملكون من جهد ومال وأنفس -لهو من أقوى الأدلة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلو كان كاذبًا أو مدعيًا لكانوا أقدر الناس على كشف كذبه، كما حدث ذلك لغيره ممن ادعوا النبوة وكشف الناس كذبهم.

٨- إن وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالنصر والغلبة وانتشار الدين الإسلامي وتحقق وعد الله لدليل أكيد على أن القرآن منزل من عند الله.

٩- كذلك تحقق وعد الله بحفظ القرآن الكريم، وها نحن نراه بعد أربعة عشر قرنًا من الزمان مصانًا ومحفوظًا، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله. إن في ذلك لدليل من أقوى الأدلة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه موحى به من عند الله.

١٠- كان للرسول صلى الله عليه وسلم معجزات مادية كثيرة رآها قومه؛ غير أن معجزته الكبرى والتي ستظل باقية إلى أبد الدهر هي «القرآن الكريم»، وهو يحمل من الأدلة والبراهين ما يثبت أنه من عند الله تعالى.

١١- إنَّ القرآن تحدث عن الغيب فأخبر عن الأحداث الماضية الموغلة في القدم منذ عهد آدم أبو البشرية، ولم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يعرف تاريخ الشعوب والأمم السابقة وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يجلس قطُّ

إلى مُعلمٍ.

١٢- إنَّ القرآن أخبر عن أحداث ستقع في المستقبل، وقد حدث أن تحقق جزء كبير من تنبؤات القرآن، وصدق قولُ الله تعالى في كل ما أخبر عنه، وبعض تلك التنبؤات لم يتحقق بعدُ كأشراط الساعة مثلًا.

١٣- إن القرآن يصف الواقع ويقدم لنا حقائق عن الكون وما فيه، ويكشف لنا أسراره إما تلميحًا أو تصريحًا، وتلك الحقائق أثبتها العلم الحديث والمعاصر، وكانت مجهولة تمامًا لمحمد صلى الله عليه وسلم وغيره عند نزول القرآن، وهذا دليل أكيد على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم يوحى إليه من الله فهو يعلم أسرار كل شيء.

١٤- إن أسلوب القرآن في عرض الأحداث ومخاطبة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ومناجاته له وعتابه ولومه وإخباره بما يجري من وراء ظهره -ليس بالأسلوب الذي يتبع في كتابة المصنفات؛ فدلَّ ذلك على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يؤلف القرآن وإنما هو وحي من الله لرسوله.

١٥- على المستشرقين إذا أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينكروا كل النبوات السابقة. فهم إمَّا أن يؤمنوا بالنبوة والوحي، وفي هذه الحال ليس هناك ما يمنعهم من الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإمَّا أن يكونوا كافرين بالله والأنبياء والرسل جميعًا، وإلا فهو التعصب الأعمى.

١٦- من الأدلة الدامغة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه استطاع بتأييد من الله تعالى أن ينشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية، ثم استطاع الخلفاء من بعده نشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وليس

لدعوة باطلة أن تقوم وتنتشر بهذا الشكل المذهل في فترة قياسية إلا إذا كانت دعوة حقٍّ وصدقٍ.

١٧- إنَّ القرآن دستور حياة يحمل من العلوم والفنون ما يعجز عن الإتيان به رجلٌ أُميٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فهو تناول كل ما يخص الإنسان في حياته؛ في الدنيا وفي الآخرة، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهذا في حد ذاته معجزة المعجزات وأقوى الأدلة على أن القرآن منزل من عند الله.

١٨- إن الادعاء بأن الإسلام مأخوذ من الكتب السماوية السابقة قولٌ ثبت بطلانه، والبحث يحمل الأدلة الدامغة على ضَحْضِ هذا القول. نهيك عن أبحاث علماء الإسلام العظيمة في هذا الشأن والتي تثبت كذب هذا الافتراء بالأدلة والحجج الدامغة.

١٩- إنَّ القرآن كلام الله أوحاه إلى محمد النبي الأمي اليتيم صلى الله عليه وسلم الذي علَّمه ربُّه وأَدَّبه فأحسن تعليمه وتأديبه، وقد دُوِّن في عصر الرسول، وجُمع في عصر عُمر، وكُتب في مصحف مرتب بحسب السور والآيات في عهد عثمان. وتلك حقائق تاريخية لا مجال للشك فيها، والقرآن لم يحدث فيه أي تغيير أو تعديل منذ أن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم حتى تقوم الساعة، وهذا وَعْدٌ من الله بذلك.

المراجع

المراجع العربية

- **القرآن الكريم.**

- **الكتاب المقدس.**

- **كتب الصحاح:**

صحيح البخاري، صحيح مسلم، موطأ مالك، مسند أحمد، كتاب أبي داود، الترمذي، ابن ماجة، النسائي، الدارمي، شرح الكرماني، فتح الباري لابن حجر، عمدة القارئ للعيني، شرح القسطلاني.

- **إبراهيم الإبياري وعبد الصبور مرزوق:** الموسوعة القرآنية، المجلد السادس، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

- **ابن إسحاق: المغازي:** المجلد الأول، القاهرة، بدون تاريخ.

- **ابن تيمية: الإيمان،** مكتبة أنصار السنة المحمدية، بدون تاريخ.

- **ابن تيمية: الرسالة التدمرية،** القاهرة، بدون تاريخ.

- **ابن تيمية: دقائق التفسير،** جمع وتحقيق د/محمد السيد الجليند، دار الأنصار، القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٩م.

- **ابن تيمية: الصارم المسلول على شائم الرسول،** بيروت ١٩٧٨م.

obeikan.com

- **ابن تيمية: مجموعة تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية،** صححه وعلق عليه/عبد الصمد شرف الدين، طبع الهند ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

- **ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب:** مجموعة التوحيد، دار الفكر، القاهرة، بدون تاريخ.

- **ابن تيمية:** الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، الطبعة الثانية، بيروت ١٣٩٠هـ.

- **ابن تيمية:** موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، الجزء الأول والثاني، تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي، القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

- **ابن الجوزي:** عجائب علوم القرآن، حققه وقدم له د/عبد الفتاح عاشور، مطبعة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

- **ابن خلدون:** المقدمة، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨٤م.

- **ابن القيم:** زاد المعاد، الجزء الأول والثاني.

- **ابن كثير:** تفسير القرآن العظيم، الطبعة الرابعة، بيروت ١٤٠١هـ.

- **ابن هشام:** سيرة النبي، تحقيق/مصطفى السقا والأبياري، الجزء الأول، القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

- **أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد:** تنزيه القرآن عن المطاعن، بيروت، بدون تاريخ.

obeikan.com

- **أبو الحسن (الواحدي النيسابوري):** أسباب النزول، وبهامشه الناسخ والمنسوخ، مكتبة الصنادقية الإسلامية، القاهرة، بدون تاريخ.

- **أبو حيان التوحيدي:** مختار رسائل جابر بن حيان، نشر بول كراوس، القاهرة ١٣٥٤هـ.

- **إدور مونتيه: فهرس مواد القرآن،** كتبه بالفرنسية ونقله إلى العربية/محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

- **أحمد أمين (الدكتور):** فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

- **أحمد جمال العمري (الدكتور):** الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، القاهرة، بدون تاريخ.

- **أحمد عزت:** الدين والعلم، ترجمه من التركية إلى العربية/عبد الوهاب عزام، وطاهر حمزة، القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

- **الباقلاني:** التمهيد، طبع بيروت.

- **الباقلاني:** إعجاز القرآن، تحقيق/عبد الرءوف مخلوف، بيروت، بدون تاريخ.

- **بلاشير:** القرآن نزوله وترجمته وتأثيره، ترجمة/رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤م.

- **ت جـ (دي بور):** تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة وتعليق أ. د/عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٧م.

obeikan.com

- **التفتازاني (الدكتور أبو الوفا الغنيمي):** الإنسان والكون في الإسلام، القاهرة، دار الثقافة للنشر ١٩٧٥م.

- **توفيق الطويل (الدكتور):** في تراثنا العربي والإسلامي، عالم المعرفة، العدد ٨٧، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٥م.

- **توفيق محمد السبع:** قيم حضارية في القرآن الكريم، القاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

- **الجاحظ:** حجج النبوة، بهامش كتاب الكامل للمبرد، القاهرة، بدون تاريخ.

- **جولد تسيهر:** العقيدة والشريعة، ترجمة/محمد يوسف موسى، القاهرة، بدون تاريخ.

- **جولد لابوم:** تفسير آيات القرآن الحكيم، وضعه بالفرنسية وترجمه إلى العربية/محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، بدون تاريخ.

- **حسن إبراهيم (الدكتور):** العرب قبل الإسلام، القاهرة ١٣٥٣هـ/١٩٣٥م.

- **حمودة غرابة (الدكتور):** الأشعري أبو الحسن، القاهرة، بدون تاريخ.

- **خليل إبراهيم:** عظمة الرسول، مطبعة الأمانة، القاهرة ١٩٨١م.

- **الرافعي:** إعجاز القرآن، القاهرة ١٣٤٦هـ/١٩٢٨م.

- **سهير فضل الله أبو وافية (الدكتورة):** الفكر الإسلامي يرد على المستشرقين، دار الكتاب للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٦م.

obeikan.com

- **السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن):** إتقان علوم القرآن، المطبعة التجارية، القاهرة ١٩٦٠م.

- **السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن):** الإكليل في استنباط التنزيل، بيروت ١٩٨١م.

- **الشهرستاني:** الملل والنحل، القسم الثاني، القاهرة.

- **الصابوني (محمد علي):** روائع البيان وتفسير آيات الأحكام، الجزء الأول والثاني، مكتبة الغزالي، دمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- **الصابوني (محمد علي):** مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الأول والثاني والثالث، دار القرآن، بيروت ١٤٠١هـ.

- **الطبري:** جامع البيان في تفسير القرآن، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٢٩هـ.

- **الطبري:** تاريخ الملوك، الجزء الأول والثاني، القاهرة، بدون تاريخ.

- **عبد القادر الجرجاني:** دلائل الإعجاز، مطبعة السعادة، الخانجي، بدون تاريخ.

- **علي بن علي بن محمد بن أبي العز:** شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- **العراقي (الدكتور محمد عاطف):** آراء الإسلاميين والمستشرقين حول الفلسفة الإسلامية، مجلة الفكر الإسلامي، العدد ١١، السنة الثالثة، تشرين الثاني، بيروت ١٩٧٢م.

obeikan.com

- **الغزالي (أبو حامد):** إحياء علوم الدين، تقديم وتحليل د/بدوي طبانة، ج١، ٢، ٣، ٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٧م.

- **الغزالي (أبو حامد):** المنقذ من الضلال، تحقيق د/عبد الحليم محمود، مطبعة دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة ١٣٨٥هـ.

- **فوقية حسين محمود (الدكتورة):** مدخل إلى الفكر الإسلامي، القاهرة ١٩٨٣م.

- **القرطبي (الإمام شمس الدين عبد الله محمد بن أحمد):** تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، دار الفداء العربي، القاهرة بدون تاريخ.

- **كريس موريسون:** العلم يدعو إلى الإيمان، تقديم الشيخ أحمد حسن الباقوري، ترجمة/محمد الفلكي، القاهرة، بدون تاريخ.

- **مجدي محمد عطا:** مدرسة الاستشراق الإنجليزي والتيارات الإسلامية الحديثة، ورسالة ماجستير تحت إشراف د/فودة حسين ١٩٨٧م.

- **محمد البهي (الدكتور):** القرآن الكريم يقول، مكتبة وهبة، القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

- **محمد أبو الفيض المنوفي:** القرآن والعلوم الحديثة، القاهرة ١٩٧٥م.

- **محمد أحمد خلف الله (الدكتور):** القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧م.

- **محمد حسنين هيكل:** حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة، بدون تاريخ.

obeikan.com

- **محمد سليمان:** حدث الأحداث في الإسلام الإقبال على ترجمة القرآن، القاهرة ١٣٥٥هـ.

- **محمد صالح البنداق:** المستشرقون، (ترجمة القرآن الكريم) بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- **محمد عبده (الإمام):** الإسلام دين العلم والمدنية، تحقيق/طاهر الطناحي، القاهرة، بدون تاريخ.

- **محمد عبد الله السمان:** القرآن والمتمردون، القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

- **محمد عبد الله دراز (الدكتور):** مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت ١٩٧٤م.

- **محمد الغزالي (الشيخ):** دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

- **محمد الغزالي (الشيخ):** نظرات في القرآن، الطبعة الثالثة، دار الكتب الحديثة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.

- **محمد الغزالي (الشيخ):** فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٥م.

- **محمد فريد وجدي:** الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأجنبية، طبعة أولى، القاهرة ١٩٣٦م.

- **محمد غلاب (الدكتور):** نظرات استشراقية في الإسلام، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

obeikan.com

- **محمد متولي (الشيخ الشعراوي):** هذا هو الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة، يونيو ١٩٨٥م.

- **محمد متولي (الشيخ الشعراوي):** الفتاوى (كل ما يهم المسلم في حياته ويومه وغده) أعده وعلق عليه د/السيد الجميلي، الأجزاء (٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠)، مكتبة القرآن، بدون تاريخ.

- **محمد متولي (الشيخ الشعراوي):** معجزة القرآن، الجزء العاشر، مشاهد يوم القيامة، مؤسسة أخبار اليوم، القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- **محمد كمال جعفر (الدكتور):** الدين والتدين، القاهرة ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.

- **محمود حمدي زقزوق (الدكتور):** الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، قطر ١٩٨٣م.

- **محمود حمدي زقزوق (الدكتور):** الإسلام في الفكر الغربي، القاهرة ١٩٨٤م.

- **مصطفى محمود:** من أسرار القرآن، دار المعارف، مصر ١٩٧٠م.

- **مصطفى محمود:** القرآن كائن حي، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٨م.

- **المقريزي:** إمتاع الأسماع، الجزء الأول، القاهرة، بدون تاريخ.

- **منصور محمد حسب النبي (الدكتور):** الكون والإعجاز العلمي للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- **نجيب العقيقي:** المستشرقون، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٣٧م.

openkan.com

- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن:** وضعه/محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

المراجع الأجنبية

- D. S. Margoliouth: "Mohammedanism" London.

- D. S. Margoliouth: Mohammed and the rise of Islam. London. ١٩٢٢.

٣- D. S. Margoliouth: Early development of Mohammadanism. London. ١٩٢٤.

- Gustov: pfannmueller: Handbuch Der Islamllteratur, Berlin, ١٩٢٣.

- H. A. R. Gibb: "mohammedanism", Oxford ١٩٤٩.

٦- H. A. R. Gibb: La structure de La penee Religieuse de L' Islm. Paris, ١٩٥٠.

٧- H. A. R. Gibb: studies on the Islamic Civilzation. Oxford ١٩٦٣.

٨- Jon Gribbin Macmillan: Our changing Universe, London, ١٩٧٨.

٩- Rudi paret: Der Koran Uebersetzung: stuttgart, ١٩٨٠.

obeikan.com

obeikan.com

فهرس

المقدمة ٣

الفصل الأول: بيان تهافت أقوال المستشرقين في إنكار الوحي ٧

١ – تمهيد: ٩

٢ – مزاعم المستشرقين: ١٤

٣ – الرد على المستشرقين: ٢٨

٤ – محمد الصادق الأمين: ٦٣

٥ – صمود النبيِّ صلى الله عليه وسلم وثقته من نصر الله: ٧١

٦ – محمدٌ صلى الله عليه وسلم كما حَدَّثنا عنه القرآنُ الكريمُ: ٨٨

الفصل الثاني: القرآنُ يردُّ على المستشرقين في ادعائهم أنه غير مُنزَّل..... ٩١

تمهيد: ٩٣

٢ – القرآن يخبر عن الماضي:.....١٠٠

٣ – القرآن يخبر عن المستقبل: ١٠١

٤ – القرآن يصف الواقع وصفًا دقيقًا، ويكشف أسرار الكون: ١٢٣

٥ – ما جاء في القرآن من مخاطبة الله لرسوله وحيًا:.....١٩٣

obeikan.com

خاتمة **٢٠٧**

المراجع **٢١١**

المراجع العربية ٢١١

المراجع الأجنبية ٢١٩

obeikan.com